التنَاسُبُ فِي الآياتِ المَخْتُومَة بـ"لَعَلَّ" ومَعْمُولَيّهَا

«دراسةٌ تطبيقيةٌ على الآياتِ المختومة بـ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾،و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، و﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾»

إعداد الدُّكتور :

محمَّد بن ناصر بن يحيى جدُه

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

ووكيل كلية الشَّريعة والقانون المكلّف

ورئيس قسم الشَّريعة بجامعة جازان

١٤٣٧هـ

ملخص البحث :

الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على الرسول الأمين، وآله الطيبين، وبعد:

فهذا البحث الوجيز قد تناول الحديث عن مبحث مهمّ من مباحث علوم القرآن على جهة الخصوص ، وجانب مؤثّر من جوانب تناول الدّرس التفسيري من حيث الرَّأي ، ألا هو التناسب في آيات بيّنات لها وصفها المعيّن ، فهي آياتٌ مختومات بـــ"لعلَّ" ومعموليها ، ومن ثَمَّ سعى البحث يستظهر ذاك التناسب اللفظي والمعنوي فيها، ويجليه للعيان، ويفصح عن الروائع البيانية التي أودعت في طيات آيات كتاب الله ، مما تحلّت بتلك الصّبغة المحددة .

وقد عُنونَ لهذا البحث بـــ«التناسب في الآيات المختومة بـــ"لَعَلَّ" ومعموليها دراسة تطبيقية على الآيات المختومة بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، و﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾»

والبحث مكوّن من مقدمة ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة، وفهرسين اثنين.

وقد خرج البحث بجملة من النتائج والتوصيات .

وهذا البحث محاولة جادة لاستكشاف جانب التناسب اللغوي والمعنوي في تلك الآيات المحدّدات للدراسة ، وهي (١٦) ست عشرة آية في كتاب الله، وتلمّس الجهد الكبير الذي قام به أهل التفسير

والمعاني ، من حيث توظيفهم المفردة والجملة القرآنية ؛ لتعزيز المعنى المقصود من الآية ، والدّلالة عليه، وكيف أن "لَعَلَّ" ومعموليها ــ خاصة ــ أتت منسجمة غاية الانسجام، ومتفقة كلّ الاتفاق في الآية الكريمة مع ما قبلها بصورة فاعلة ومثمرة ، يعْرفُ هذا أيُّ أحدٍ له حاسة التذوق لهذا الكتاب المجيد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ...

* * * * *

مقدمة البحث :

الحمد لله رب العالمين ، والصّلاة السّلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه الطيبين ، ومَن سار على نهجه ، واقتفى إلى يوم الدِّين . وبعد:

فإنَّ "المناسبات بين الآيات والسّور" هو أحد فروع "علوم القرآن"(١)، وقد اشتهر بإعماله جلْة من المفسِّرين في تفاسيرهم ، ووظّفوه ؛ لبيان روعة وجمال وجلال هذا الذّكر الحكيم ، وهم في صنيعهم ذاك ما بين مكثر ومقلّ، ومتعمدٍ لذاك الفعل مُحْتَفٍ به ، وآخر يمر به مرور الكرام . وهذا التناسب يتأتّي من ذات هذا القرآن العظيم ، ومن كونه تَنَزَّل من ربّ العالمين ، وفق اللسان العربي المبين .

والعرب في كلامها وجملة مخاطباتها،وروائع تراثها المحفوظ ما بين نثر وشعر، قد راعت بحقٍّ جانب التناسب والمناسبة اللغوية والمعنوية أيما مراعاة!. ودواوينها شاهدةٌ بهذا الزّخم اللغوي البديع ، مما أكسبهم بهذه الرِّعاية وبغيرها من شتّى ضروب اهتماماتهم المتقدمة ببنية الكلمة ، وبسبك الجملة وفصاحتها ، وبظهور الأسلوب ودلالته ، وبتكامل النّظم وروعته ، أكسبهم كلّ ذلك أنَّ استحقوا أن

---

(١) عدَّه الزّركشي في البرهان في علوم القرآن (٣٥/١) النوع الثاني.
وعدَّه السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (٩٧٢/٤) النوع الثاني والستون .

ينزل بلسانهم هذا الكتاب الخالد ، الذي أضحى شهادة تفوّقهم في اللسان ، وبرهان تفرّدهم بالبيان ، وصكَّ افتخار لمدى الدّهر تحقيقاً لقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف:٤٤] .

والمرء وهو يقرأ في كتاب ربّه الكريم لطالما استوقفته تساؤلات مثيرةٌ ، تنبع من عَيْشِه مع النصّ القرآني العظيم ، وهو يقلّب الفكر في حروفه وكلماته وجُمَلِه وآياته ، كيف أنها أتت بهذا الترتيب المحفوظ بين دفتي المصحف ، كيف تناسقت آياته آية في إثر آية ، ومفردةً في عقب أُخرى ، وجملة قرآنية تنادي بأختها المُصْطَفَّة بقربها ، بحيث أنك لا تستطيع أن تُبْدِلَهَا بأُخرى ، آياته متناسقةٌ ، وفي نفس الآية الواحدة ترى انسجاماً للمفردات ، وتناسقاً يأخذ بالألباب ، مما لا تملك معه إلا أن تسلم له القياد طائعاً ، فيأخذ بك في أفنانه الرَّائعة، ومعانيه السَّامية، ودلالاته المتنوعة ، واقتضاءاته المُقَدَّرة .

وثَمَّة آياتٌ كريماتٌ توافر فيها أن ختمت بـ"لعلَّ" ومعموليها، و"لَعَلَّ" على جهة الخصوص لها دلالتها اللغوية والتركيبية ؛ كونها حرفاً من حروف المعاني ، تُسْهِمُ بصورةٍ ظاهرةٍ في البيان القرآني باختلاف سياقاتها، وتنوّع مواضعها .

وعليه فقد سعى الباحث حثيثاً ؛ ليستشف وجه التناسب في هاتيك الآيات الكريمات، مستعيناً في ذلك بكلام جهابذة المفسّرين الذين كانت لهم عناية ظاهرةٌ بالمناسبات في الآيات القرآنية ، ولمَّا كان

استقصاء تلك المواضع بجملتها بالدّراسة فيه تعذّر وصعوبةٌ ، فقد اقتضى الأمر حصره في نماذج ثلاثة بالدَّرْس التطبيقي ؛ ليدلَّ ذلك على مثيلاتها الأُخرى، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعُنُق. وعُنونَ لذلك بـــ«التناسب في الآيات المختومة بـــ"لَعَلَّ" ومعموليها دراسة تطبيقية على الآيات المختومة بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، و﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾» .

- **خطة البحث** :

وقد أتى البحث مُقَسَّماً إلى مقدّمة ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة ، وفهرسين .

المقدمة : وفيها خطة البحث ، وسبب اختياره، وحدوده، والأسئلة التي سيُجيب عليها ، ومنهجه .

ـــ المبحث الأول : مبحث تمهيدي ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في "لَعَلَّ"، ومعانيها .

المطلب الثاني : في معنى التناسب ، وأبرز أنواعه، وفائدته .

المطلب الثالث : ذِكْر مواضع "لَعَلَّ" في القرآن الكريم .

ـــ المبحث الثاني: تناسب الآيات المختومة بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ،و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تناسب الآيات المختومة بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

المطلب الثاني : تناسب الآيات المختومة بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ـــ المبحث الثالث: تناسب الآيات المختومة بـــ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

الخاتمة : وفيها أهم النتائج والتوصيات .

الفهارس : فهرس المصادر والمراجع . وفهرس الموضوعات .

- سبب اختيار البحث : يرجع سبب اختيار هذا الموضوع لأمور منها :

١. أهمية الموضوع من حيث تناوله لجانب مهمّ من جوانب العلوم الخادمة لتفسير كتاب الله ـــ تعالى ـــ، وما وظّفه ثُلّةٌ من المفسّرين في تفاسيرهم من "علم المناسبات" .

٢. جِدَّة الموضوع(١) بهذه المنهجية المسلوكة ، فعلى حَدِّ علمي المتواضع لم أرَ مَن تطرَّقَ له كما تَطَرَّقَ له هذا البحث مع الآيات المختومات بـــ"لعلَّ" ومعموليها .

---

(١)لم يكن حرف بحجم وأهمية "لَعَلَّ" إلى الآن غُفْلاً عن اهتمام الباحثين به ، إمّا في صورة بحوثٍ مفردة ، أو يأتي الكلام عنها ضمن حروف المعاني ، أو غير ذلك من مظاهر الاهتمام والرّعاية، وقد يكون أوسع ما كُتِبَ عن "لعلَّ" كبحث منفرد بحثان اثنان: أحدهما: بحث علمي محكّم للأستاذ الدكتور:يوسف بن محمود فجّال، الأستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الملك سعود ، وعنوان بحثه : "لعلَّ في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية ، وهو منشور عن مركز بحوث كلية الآداب بالجامعة ، ويقع في نحو (١١٥ صفحة). وهو جهد علمي نحوي لغوي متميّز من حيث التأصيل اللغوي لهذا الحرف ، ومِن ثَمَّ تصنيفه من حيث المعنى حسب وروده في =

٣. الدِّراسة التطبيقية على بعض الآيات المختومة بـــ"لَعَلَّ" ومعموليها فيها جانبٌ كبيرٌ من الوقوف على أسرار كتاب الله ــ تعالى ــ في جماله اللغوي ، وجلاله البياني ، من حيثُ السّبك والرَّصف ، وانسجام المعاني مع دلالات الألفاظ المضمّنة في هاتيك الآيات ، فضلاً عن كشف اللّثام عن طريقة تعامل المفسّرين المعتنين بالمناسبات والتناسب في هاتيك الآيات الكريمات المحدَّدات بالدَّراسة.

- **حدود البحث** :

سيتركز البحث ــ بحول الله تعالى ــ في جانب الدِّراسة التطبيقية على التناسب في الآيات المختومات بـــ"لَعَلَّ" ومعموليها ، وستنحصر تلك الدّراسة في ثلاثة مظاهر منه، وهي الآيات المختومات بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، و﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ دون غيرها من مثيلاتها الأخرى وهي كثيرة ، ويُقصد بمعموليها هنا : اسمها ،

=

الآيات القرآنية مع محاولة استقصاء معاني "لَعَلَّ" هناك، مع تعقّبات وتحليلات جيدة في هذا الباب، وقد أحسن في فعله وأفاد، وقد أثبت الباحث ما أفاده من هذا البحث في مواضعه من هذه الدراسة .

وثانيهما : أيضاً بحث علمي محكم للدكتورة / فاطمة بنت عبد الرحمن حسين ، وعنوانه بحثها : "لَعَلَّ" وتوسُّعات العرب في استعمالاتها، من مطبوعات معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى ، مركز بحوث اللغة العربية وآدابها ، ١٤١٩هـــ/١٩٩٨م . وكلاهما لا علاقة لهما بالمناسبات لا من قريب ولا بعيد، وإنما اقتضت الأمانة العلمية الإشارة إليهما .

وهو ضمير الجمع المتصل بها ، وخبرها وهو الجملة الفعلية التي فعلها مضارع مرفوع بثبوت النون . وهي وفق هذا النمط بلغت عدّاً كثيراً في كتاب الله ، لكن المتناول بالدراسة من ذلك إنما هو (١٦) ست عشرة آية فقط .

وبما أنّ هذا البحث عن التناسب فإنه يحسن أن يبرّر وجه اختيار الآيات المذيّلات بمادة التفكّر والفلاح هنا، وهو أنَّ التفكّر المتحرِّرَ من قيود التبعية والتقليد والأهواء، الذي يَـرُومُ صاحبُـهُ الوصول إلى الحقّ المبين ، هو التفَكُّر النافع البناء الذي دعا إليـه القرآن الكريم في أكثر من آية ، وهو نفسه السّبيل المبلّغ للفلاح من أقصر طريق ، والسببُ الباعثُ على تحقيق الفوز بالغاية التي يسعى لها المرء من وراء هذه الحياة الدّنيا .

- **وفي طيَّات هذا البحث إجابات عن تساؤلات عديدة منها** :

١. ما هي "لَعَلَّ" ؟، وما المعاني الأصلية التي تجيء عليها ؟،وما المعاني الفرعية لها ؟. وما هو موقف علماء اللغة من هاتيك المعاني إثباتاً ونفياً ؟، وما معنى "لَعَلّ" إذا أتت في كلام الله ــ تعالى ــ ؟، وما الأقوال في ذلك؟، وما الذي يترجّح للباحث في هذه المسألة ؟، ولِمَ؟.

٢. ما تعريف التناسب لغةً واصطلاحاً؟، وما أنواعه في كتاب الله؟، وما فائدته؟.

٣. ما الأمثلة التي ساقها المصنّفون في "علوم القرآن" ، والمتناولون للتفسير الموضوعي، وأرباب البلاغة في جانب التناسب اللفظي في كتاب الله ــ تعالى ــ؟.

٤. كم وردت "لَعَلَّ" ومعمولاها في كتاب الله ــ تعالى ــ ؟، وأين هي مواضعها في كتاب الله ــ تعالى ــ ؟، وما هي مظاهر وُرُودِهَا ؟، وكم عددها في كلّ مظهر ورد ؟.

٥. الآيات المختومات بـ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، و﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ كيف يمكن إعمال التناسب والمناسبات فيها بشكل علمي ومُثْمر ، من خلال تناول المفسرين لها ؟. وما معنى "لَعَلَّ" في كلّ آيةٍ منها ؟، هل هي للتعليل؟، أو للترجّي؟، أم هي دائرةٌ بين التعليل والترجِّي؟.

- **منهج البحث المُتَّبَع** :

البحث دائر في أغلبه على المنهج (التحليلي، الوصفي)، مع مراعاته لأمور ، منها :

١. ترك التعريف بالأعلام الواردة أسماؤهم في متن البحث؛ خشية الإطالة .

٢. ترقيم الآيات وذكر اسم السُّورة في صلب الدّراسة ، وكذا تخريج الأحاديث والآثار

برقم الجزء والصّفحة ورقم الحديث، ــ وهي طريقةٌ منتهجةٌ عند الباحثين فيما إذا لم يكن البحث تحقيقاً ــ، مع ذكر الحكم على الحديث

الوارد في غير الصَّحيحين قدر الإمكان ، وعزو الأقوال إلى مظانّها قدر الاستطاعة.

٣. ما كان من تعليقات فإنها تثبت في الحاشية؛ تخفيفاً للمتن .

٤. إرجاء ذكر أسماء مؤلّفي كتب المراجع والمصادر، وطبعاتها إلى فَهْرَسها ؛ خشية الإطالة ، إلا ما كان منها متعـدّد الطَّبعـات ، فَأبـيِـنُ عن النسخة التي رجعت إليها بشيءٍ يميزها ، إمـا باسـم المحقق،أو بالناشر .

٥. في جانب الدِّراسة التطبيقية، يبدأ تناول الآية من حيث كـون بعض أجزائها سبباً لحصول معمول "لَعَلَّ"، وباعثاً عليه ، ويذكر هذا على جهة الإجمال ، ثُمَّ يُرْدَفُ ببيان نوع "لَعَلَّ" في الآية ، بعدها يبدأُ التدرجُ بذكر وجه مناسبة الآية المتناولة مع ما قبلها حينـاً ، وحينـاً يُترك هذا، ــ سيما إذا لم يكن لذلك دورٌ في تحقيق التناسب المنشود ــ، يُفْعَلُ كلٌّ ما مضى بما يُسهم ببيان وجه التناسب ، بين صدر الآية وبين آخرها ، ويتمُّ بعدُ نقل أقوال المفسّرين في مفردات وجمل الآية الكريمة مناط البحث بما يـُعَـزِّز جانب التناسب في الآية الكريمة ، وقد يطول ــ حيناً ــ التدرج في التمهيد للوصول إلى إظهار جانـب التناسب ، ولا يُعَكِّرُ ذلك ؛ إذ مهمة الدِّراسة التطبيقية تقضـي بهـذا الفعل .

٦. الضّابط في تصنيف معاني "لَعَلَّ" فـي الآيـات الـمُتَنَاوَلَة بالدراسة التطبيقية على معنى : التعليل، أو الترجّي، أو الدّوران بين التعليل والترجّي ، إنما خرج ذلك على الأظهر والأغلب ، ولا يعني

جعلها في آيةٍ معينة وفق أحد تلك المعاني الآنفة حصرها في ذلك المعنى بعينه دون سواه.

٧. التقليل بصورة كبيرة جداً من تناول المسائل النحوية والإعرابية والبلاغية والخلافية ، وكذلك ترك إيراد الأقوال الواردة عن السلف في الآية ، إلا ما كان ليس للبحث منه بدٌّ ، والحرص على إخراج هذا البحث منسجماً مع كونه في التناسب فحسب .

٦. قد تُنقَل نصوصٌ من عند المفسّرين قديمهم وحديثهم لها تَعَلُّقٌ بمناسبات الآيات ، وتُسَاقُ إبّان الدراسة مرتبة على حسب التسلسل الزّمني غالباً ، ــ وربما تُلحَظ كثرتها ــ ، بينما الهدف منها إعطاء صورة واضحة لجوانب علمية لها تَعَلُّقٌ ظاهرٌ وخادمٌ لهذه الدِّراسة التطبيقية، وليس الغرض منها الحشو والتزيـّدُ ــ علم الله ــ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ،،،

د : محمَّد بن ناصر بن يحيى جَدُّه

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

بجامعة جازان

المبحث الأول: مبحث تمهيدي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل : في "لَعَلَّ"، ومعانيها :

هي أحد حروف المعاني(١)، حرفٌ مُشبــّـَهٌ بالفعل من أخوات "إنَّ"، وقد جُعِلَ مشبــّـَهاً بالفعل ؛ لأنه يشبه الفعل في نصبه الأسماء، وفي وجود نون الوقاية بينها وبين ياء المتكلم، نحو : لعلَّني ، ولأنه مبنيٌّ على الفتح كالأفعال .

وحرف "لَعَلَّ" يدخل على الجملة الإسمية فينسخها ، حيث يبطل حكمها، فينصب المبتدأ اسماً له، ويرفع الخبر خبراً له . وقيل : قد ينصبهما ، وزُعِمَ انه لغة لبعض العرب ، وحَكَوا : لعل أباك منطلقاً ، وتأويله عند الجمهور على إضمار يوجد ، وعند الكسائي على إضمار يكون. وبنو عقيل يخفضون بها المبتدأ .

---

(١)حروف المعاني هي : كلّ حرف أو شِــبــه حرفٍ ، له وظيفةٌ نحوية ، أو صرفية ، أو صوتية ذات دلالة .

انظر : معجم حروف المعاني في القرآن الكر يم (التمهيد/ ر) .

ويتصل بـــ"لعلَّ" ما الحرفية، فتكفّها عن العمل، وجوّز قوم إعمالها حينئذٍ؛ حَمْلاً على "ليت"؛ لاشتراكهما في أنهما يُغيـّران معنى الابتداء . وفي "لَعَلَّ" لغاتٌ كثيرة[١].

- **معاني "لَعَلَّ"**:

ذكر العلماء أنَّ "لَعَلَّ" تجيء لمعان ، منها[٢]:

---

(١)انظر في ذلك كلّه : رصف المباني في شرح حروف المعاني (٤٣٤ــ٤٣٦)، والجنى الدّاني في حروف المعاني (٥٧٩ــ٥٨٦)، ومغني اللّبيب عن كتب الأعاريب (٣١٥/١)،وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤/ ٤٣٢)،وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١٥٢/٢ــ١٥٤)،ودراسات لأُسلوب القرآن الكريم (القسم الأول (٥٩٨،٥٩٦/٢)،وأدوات الإعراب (٢٠١)،والحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين (١٦٨).

(٢) انظر في الكلام الآتي كلّه : الكتاب (٣١١/٢)، والمقتضب (١٠٨/٤) ، وحروف المعاني والصّفات (٣٠/١) برقم (٩٨) ، والصّاحبي في فقه اللغة العربية (١٢٤/١) ، والأزهية في علم الحروف (٢٢٦ــ٢٢٧) ، ومفردات الراغب (٧٤١) مادة "لعل"، ونزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (٥٢٩ــ٥٣٠) ، والجنى الدّاني في حروف المعاني (٥٧٩ــ٥٨٢)، وشرح التسهيل (٧/٢) ، ومغني اللّبيب (٣١٧/١) ، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٢٦/٤) مادة "لعل"، والبرهان في علوم القرآن (٣٩٢/٤ــ٣٩٥) ، وبصائر ذوي التمييز (٤٣٢/٤ــ٤٣٣)، وهمع الهوامع (١٥٢/٢ــ١٥٤) ، والإتقان في علوم القرآن (٥٩١/٢ــ٥٩٢) ، والكليات (٧٩٣ــ٧٩٤)، ودراسات لأُسلوب القرآن الكريم القسم الأول (٥٩٨/٢)، =

أولها : المعنى الوضعي لكلمة "لعلَّ"، وهو إنشاءُ توقّع أمر متردِّدٍ بين الوقوع وعدمه، مع رجحان الوقوع ، وهذا المعنى إمّا محبوبٌ فـيُسمَّى ترجياً، وهو الأصل فيها ، وهو الأشهر والأظهر ، وهي في ذلك كـ"عسى"، نحو: لعلّ الله يغفر لنا ، وإمّا مكروهٌ فيُسمَّى إشفاقاً ، نحو: لَعَلَّ الله يغفر للعاصي، ونحو: لَعَلَّ العدو يقدم .

والترجِّي والإشفاق إنما يكون للأشياء الممكنة الحدوث؛ لأنَّ الترجِّي انتظار، ولا يُنتظر إلا في الممكن، وهذا على العكس من "ليت" التي تفيد التمني، والتمني يكون مع الأشياء المستحيلة الحدوث ، فلذا قال الشَّاعر :

أَلا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمَاً & فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ(١).

فعودة الشَّباب مستحيلة، لذا استعمل "ليت" . وأمَّا قول فرعون: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [غافر:٣٦ــ٣٧]، فإنما قاله جاهلاً، أو مَخْرَقَة وإِفْكًا؛ إذ اطِّلاع فرعون إلى الإله مستحيل .

=

وأدوات الإعراب (٢٠١)، والأدوات النحوية في كتب التفسير (٤٩٩ــ٥٠٠، ٦٨١،٦٧٠ــ٦٨٣)، والحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين (٨٤ــ٩٢،١٦٨)، و"لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٢٨ــ٣١) .

(١) البيت من الوافر، وهو لأبي العتاهية .

انظر : ديوانه صـ (٣٢) ، وبلا نسبة في قطر الندى وبلّ الصدى صـ(١٤٨) ؛ ومغني اللَّبيب (١/ ٣١٤) .

قال الألوسي ــ رحمه الله ــ : «والذي يميل إليه القلب ما ذكره بعض المحقِّقين إنها لإنشاء توقّع أمر مُترددٍ بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول، إمّا محبوب فيُسمّى رجاء ، أو مكروه فيُسمّى إشفاقاً ، وذلك يُعتبر تحقّقه بالفعل ، إمّا من جهة المتكلّم ــ وهو الشّائع ــ ؛ لأنّ معاني الإنشاءات قائمة به ، وإمّا من جهة المخاطب تنزيلاً له منزلة المتكلّم في التلبّس التام بالكلام الجاري بينهما ، ومنه : ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] »(١).

ومن استعمالات "لعَلَّ" في الترجِّي ــ الذي هو الأصل فيها ــ ما يلي:

١. قوله ــ تعالى ــ : ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة] .

٢. وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة] .

٣. وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنعام] .

٤. وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف] .

---

(١)روح المعاني (١/١٨٨) .

ومِن استعمالات "لعَلَّ" في جانب الإشفاق :

١. قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشُّورى]، فإنَّ السّاعة مخوفةٌ في حقِّ المؤمنين بدليل قوله- تعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ [الشُّورى:١٨] .

٢. وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب] .

٣. وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ ﴾ [الكهف:٦].

٤. وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشُّعراء].

٥. وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ [يونس:١٢] .

٦. وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنبياء]([1]).

ثاني معانيها : التعليل، أثبته جماعة منهم :الأخفش،وثعلب، والكسائي، وابن مالك، وحمَلوا على ذلك ما في القرآن،من نحو: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[البقرة]،﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف] ، أي :

---

(١)ذكرالشيخ : محمد عبد الخالق عظيمة ــ رحمه الله ــ في كتابه "دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول (٢/٥٩٧) أنَّ "لعلَّ" في غير هذه المواضع الستة إنما هي للتوقّع .

لتشكـــروا، ولتـــهتدوا ، وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] .

ومَن لم يثبته ــ كما هو مذهب سيبويه ، والمحققين ــ ، فعندهم أنها في ذلك كلِّه للترجِّي، وهو ترجٍّ للعباد . وأنَّ قوله ــ تعالى ــ : ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ معناه : اذهبا على رجائكما ذلك من فرعون، ويصرف الرّجاء إلى المخاطبين .

قال الزَّركشي ــ رحمه الله ــ : «وحكى البغوي في تفسيره عن الواقدي أنّ جميع ما في القرآن من "لعلَّ" فإنها للتعليل إلاّ قوله ــ تعالى ــ: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشُّعراء] ، فإنها للتشبيه . وكونها للتشبيه غريب لم يذكره النُّحاةُ ... . وذكـــر غيره أنها للرَّجاء الـــمحض، وهو بالنسبة إليهم»(١).

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣٩٤/٤ــ٣٩٤) . ومعنى أنها للتشبيه أنها بمعنى "كأنَّ" .

قال السُّيوطي ــ رحمه الله ــ في الإتقان (٥٩٢/٢) : «أخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك قال : "لعلكم" في القرآن بمعنى "كي" غير آية في الشُّعراء : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾، يعني : كأنكم تخلدون .

وأخرج عن قتادة قال : كان في بعض القراءة : (وتتخذون مصانع كأنّكم خالدون)» . وانظر لقول أبي مالك تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٦٠/١) رقم (٢١٨)،ولقول قتادة نفس التفسير (٢٧٩٥/٩) رقم (١٥٨١٦).

ثالث معانيها : الاستفهام ، أثبته الكوفيون، ولهذا علِّق بها الفعل في نحو: لَا ﴿ تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١ ﴾ [الطَّلاق]،ونحو:﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ ﴾ [عبس] . والبصريون أرجعوا هذين المعنيين الأخيرين إلى الترجِّي والإشفاق .

قال ابن فارس ــ رحمه الله ــ : «"لَعَلَّ" تكون استفهاماً وشَكّاً. وتكون بمعنى : "خليق". وحُكِيَ عن الكسائي أنّ "لعلّما" تأتي بمعنى "كأنما" ، و"أنما" ، وأنكر الفرّاء هذا، قال : لأنَّ "أنما" معبرة عن "أنْ" ، ولا يجوز أن تُسقط "ما" منها أبداً .

وأهل البصرة يقولون : "لَعَلَّ" ترجٍّ . وبعضهم يقول : توقُّع .

وتكون "لَعَلَّ" بمعنى "عسى". وتكون بمعنى "كي". قال الله ــ جلّ ثناؤه ــ : ﴿ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ ﴾ [النحل] ، يريد: لكي تهتدوا»(١) .

• مسألة: معنى "لَعَلَّ" إذا أتت في كلام الله ــ تعالى ــ .

ثــمَّة خلافٌ وقع بين العلماء ــ رحمهم الله ــ في معنى "لعلَّ" الواقعة في كلام الحقِّ ــ عزَّ شأنــهُ ــ ، والحامل لهم على هذ الخلاف أنّ "لَعَلَّ" الأصل فيها الترجّي بنوعية : التوقّع ، والإشفاق،

(١) الصَّاحبي (١/١٢٤) . وقد أضاف بعض الباحثين إلى تلك المعاني من معاني "لعلّ" : الأمر، والنّهي، والتبعيد، والإيجاب ، والتمنّي . انظر : "لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٩) .

ومعنى الترجِّي يقتضي عدم الجزم بوقوع المرجو عند المتكلّم ، فللشكِّ جانبٌ في معناها ، حتى قال الجوهري : «"لَعَلَّ" كلمة شكٍّ»(١). وهذا لا يُناسب علم الله ــ تعالى ــ بأحوال الأشياء قبل وقوعها ؛ وكذلك الإشفاق والخوف كلّ ذلك محال على الله . وكذلك لأنّ "لعلَّ" قد وردت في أخبار مع عدم حصول المرجو،كقوله ــ تعالى ــ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف] ، مع أنــَّهم لم يتذكّروا كما بيّنته الآيات من بعدُ .

ومِن ثَمَّ كان لهم في تأويل "لَعَلَّ" الواقعة في كلامه ــ تعالى ــ عِدّة وجوه(٢):

١. فقالت طائفة: إنها ليست على حقيقتها تَمَّــةَ بل هي للتعليل، بمعنى "كي"، قاله قطرُب، وابن كيسان، وأبو علي الفارسي، وابن الأنباري، وابن القيم .

---

(١) الصِّحاح (٥/١٨١٥) .

(٢) انظر في الكلام الآتي كلّه : الكتاب (١/١٦٧)، والمقتضب (٤/١٨٣)، ومفردات الراغب (٧٤١) مادة "لعل"، والبحر المحيط (١/٢٣٤ــ٢٣٥) ، وعمدة الحفاظ (٤/٢٦) مادة "لعل"، والبرهان في علوم القرآن (٤/٣٩٢) ، والكليات (٧٩٣ــ٧٩٤)، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي "عناية القاضي وكفاية الراضي " (٢/١٠) ، وروح المعاني (١/١٨٨ــ١٨٩) ، والتحرير والتنوير (١/٣٢٩ــ٣٣٠) ، ودراسات لأُسلوب القرآن الكريم القسم الأول (٢/٥٩٩) ، و"لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٨٤ــ٨٧، ١٠٦ــ١٠٨، ١١٢) .

قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ : «فصل : النوع السَّابع : التعليل بـــ"لَعَلَّ"، وهي في كلام الله ــ سبحانه وتعالى ــ للتعليل مجردة عن معنى الترجي ، فإنها إنما يقارنها معنى الترجي إذا كانت من المخلوق ، وأما في حقِّ مَن لا يصح عليه الترجِّي فهي للتعليل المحض ، كقوله : ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة] ، فقيل : هو تعليل لقوله: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾، وقيل : تعليل لقوله : ﴿ خَلَقَكُمۡ ﴾. والصَّواب : أنه تعليل للأمرين لشرعه وخلقه»(١).

ويمكن القول أنَّ كلامهم الآنف في "لعل" إنما هو في المواقع التي لا يظهر فيها معنى الرّجاء .

٢. وقيل : بل هي لتحقيق مضمون ما بعدها . وهذا لا يطَّرِّد؛ لورود نحو: ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] .

٣. وقيل : بل هي للإطماع(٢)، تقول للقاصد : لعلّك تنالُ بغيـــتك. وفي الكشَّاف : «وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من

---

(١)شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١٩٦) .

(٢)تجيء "لَعَلَّ" للإطماع ، فيكنـــَى بها بقرينة المقام عن تحقّق ما بعدها على عادة الملوك والكبراء ، فإنها في مواعيدهم كالجزم بها ، فهم يطلقونها ؛ إظهاراً لوقارهم ، وإشعاراً بأنّ الرّمز منهم كالتصريح من غيرهم ، وعليه وعد الله ووعيده ، تنبيهاً على أنه يجب أن يكون المكلّف على الطّمع والإشفاق ؛ لأنه أبعد عن الاتكال والإهمال .

انظر : الكليات (٧٩٤)، وروح المعاني (١٨٩/١) .

القرآن»( ). «والإطماع معنى مجازي للرَّجاء؛ لأنّ الرّجاء يلزمه التقريب، والتقريب يستلزم الإطماع، فالإطماع لازمٌ بمرتبتين»( ).

٤. وذهب سيبويه والمبرِّد وبعض النُّحَاة إلى أنها على حقيقتها ، وإنما الرّجاء والإشفاق يتعلّق بالمخاطبين ؛ لأنّ الأصل أنَّ الحرف لا يخرج عن حقيقته بغير داعٍ، ومن ثَمَّ فصرفه إلى المخاطبين بناءً على أنَّ معاني الألفاظ تكون بالنظر إلى المتكلم، وبالنظر إلى المخاطب ، والى غيرهما .

قال سيبويه ــ رحمه الله ــ: «"لعلَّ" على بابها ، والترجّي أو التوقّع إنما هو في حيز المخاطبين»( ).

٣

وقال المبرِّد ــ رحمه الله ــ : « ...، ولكنه خرج على كلام العباد، ومثل هذ قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾، و"لعلَّ" إنما هي للترجّي، ولا يُقال ذلك لله،ولكنَّ المعنى –والله اعلم–: اذهبا أنتما على رجائكما ، وقولا القول الذي تَرْجُوان به ، ويرجو به المخلوق تذكّر مَن طالبوه»( ). وعند الزجاج – رحمه الله –: «أي:اذهبا على رجائِكمَا كما يرجو النبيّ ممنْ يُبْعَث إليه، واللَّه

---

(٣) الكشّاف (٩٢/١) .

(٤) التحرير والتنوير (٣٢٩/١) .

(١) الكتاب (١٦٧/١) .

(٢) المقتضب (١٨٣/٤) .

ـ﴿﴾ـ من وراء العلم بما يؤول إليه أمر فرعون، إلا أنَّ الحجةَ لا تَقوم إلا بَعدَ الإبَانَةِ»(١).

٥. وذهب صاحب الكشّاف إلى أن الترجّي ليس على سبيل الحقيقة ، بل على سبيل الاستعارة ، حيث قال : «"لَعَلَّ" واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة ؛ لأنَّ الله ـ﴿﴾ـ خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف، وركَّب فيهم العقول والشّهوات، وأزاح العِلّة في إقدارهم ، وتمكينهم ، وهداهم النـّجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير والتقوى . فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا ليترجَّح أمرهم وهم مختارون بين الطاعة والعصيان ، كما ترجَّحت حال المرتجى بين أن يفعل وأن لا يفعل ، ومصداقه قوله ـ﴿﴾ـ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك:٢] ، وإنما يبلو ويختبر مَن تخفى عليه العواقب، ولكن شبه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار»(٢).

فكلام صاحب الكشَّاف يجعل "لَعَلَّ" في كلامه ــ تعالى ــ استعارة تمثيلية ؛ لأنه جعلها تشبيه هيئة مركّبة من شأن المريد والمراد منه والإرادة بحال مركبة من الرَّاجي والمرجو منه

(٣)معاني القرآن وإعرابه (٣/٤٣٩) .

(١)الكشاف (١/٩٢). وكلامه هذا مبني على مذهبه الاعتزالي من أنّ العبد مختار، وأنَّ الله لا يريد منه إلا فعل الخير .

والرّجاء ، فاستعير المركَّب الموضوع للرَّجاء لمعنى المركَّب الدَّال على الإرادة[١].

٦. وذهب العلامة ابن عاشور إلى «وجه آخر مستقِّل ، وهو أنَّ "لَعَلَّ" الواقعة في مقام تعليل أمر أو نهى لها استعمال يغاير استعمال "لَعَلَّ" المستأنفة في الكلام، سواء وقعت في كلام الله أم في غيره، فإذا قلت : افتقد فلاناً لعلَّك تنصحه، كان إخباراً باقتراب وقوع الشّيء ، وأنه في حيز الإمكان إن تم ما عُلِّق عليه، فأمَّا اقتضاؤه عدم جزم المتكلم بالحصول فذلك معنى التزامي أغلبي قد يُعْلَم انتفاؤه بالقرينة، وذلك الانتفاء في كلام الله أوقع، فاعتقادنا بأنَّ كلَّ شيء لم يقع أو لا يقع في المستقبل هو القرينة على تعطيل هذا المعنى الالتزامي دون احتياج إلى التأويل في معنى الرّجاء الذي تفيده "لَعَلَّ" حتى يكون مجازاً أو استعارة؛ لأنَّ "لَعَلَّ" إنما أتي بها؛ لأنَّ المقام يقتضي معنى الرَّجاء ، فالتزام تأويل هذه الدّلالة في كلِّ موضع في القرآن تعطيل لمعنى الرّجاء الذي يقتضيه المقام . والجماعة لجؤا إلى التأويل ؛ لأنهم نظروا إلى "لَعَلَّ" بنظر مُتَّحِدٍ في مواقع استعمالها ، بخلاف "لَعَلَّ" المستأنفة، فإنها أقرب إلى إنشاء الرّجاء منها إلى إخبار به»[٢]. وفي موضع آخر قال ــ رحمه الله ــ : « والرَّجاء المستفاد من ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ مستعمل في معنى تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا

---

(١) انظر : التحرير والتنوير (١/٣٣٠) .

(٢) التحرير والتنوير (١/٣٣٠) .

بأعمالهم الحد الموجب للفلاح فيما حدد الله ــ تعالى ــ ، فهذه حقيقة الرَّجاء. وأما ما يستلزمه الرَّجاء من تردد الرَّاجي في حصول المرجو ، فذلك لا يخطر بالبال ؛ لقيام الأدلة التي تحيل الشكّ على الله ــ تعالى ــ»(١).

وبعد : فإنَّ جمهور أئمة اللُّغة على أنَّ "لعلَّ" للترجّي والإشفاق ، وكونها للتعليل(٢) منازعٌ فيه بقوّة، والبعْض يرى أنها لا تصلح للتعليل(٣)، كما أنَّ حمل "لَعَلَّ" علَّى معنى واحد لا يستقيم ، بل إنَّ معناها يختلف من موضع إلى آخر بحسب موضعها وسياقها(٤)، فهي عندما تأتي في بداية الكلام تفيد معنى غير المعنى الذي تفيده إذا

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/٣٤٦) .

(٢) سبق ذِكْرُ أنّ من العلماء مَن جعل "لَعَلَّ" في كتاب الله ــ ﷻ ــ للتعليل لا للترجّي ، وتكون بهذا المعنى للتحقيق لا للشكّ ، وعندهم أنَّ جميع ما في القرآن من "لَعَلَّ" فإنه للتعليل إلا آية . ويرى البعض أنَّ هذا المذهب هو أقرب ما فُسِّرَت به "لعَلَّ" في كتاب الله ــ ﷻ ــ ؛ لـِمَا فيه من تنزيه الله ــ ﷻ ــ عن الجهل، ولـِمَا فيه كذلك من بُعدٍ عن التكلّف في المعنى والتخريج. انظر: "لعل" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٨).

(٣) انظر : الكليات (٧٩٤). وممن صرَّح بأنها ليست للتعليل : وأبو حيّان في "البحر المحيط" (١/٢٣٤)، والصّفاقسي في كتاب "المجيد في إعراب القرآن المجيد" (١٤٩)، والمرادي في "توضيح المقاصد والمسالك في شرح ألفية ابن مالك" (١/٥٢٣) .

(٤) انظر : الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغين (٨٤ــ٩٢) .

جاءت بعد طلب ، وهكذا إذا أتت في كلام الله ــ تعالى ــ فمعناها ليس كمعناها في كلام غيره[١].

ومن ثَمَّ فلعلَّ إبقاء "لعلَّ" في كلام الله ــ تعالى ــ على أصلها في الترجّي والإطماع أولى من صرفها إلى أيٍّ واحدٍ من الأقوال الأخرى التي سيقت آنفاً ، وذلك لأمور :

- أنه قول المحقّقين الحذّاق من أئمة اللُّغة ، كما أنه قول جمهورهم ، وهذا من وجوه الترجيح .
- أنَّ الأصل في حروف المعاني حملها على المعنى الأصليِّ لها المشهور ، ولا يحسن حملها على غيره من المعاني إلا بقرينة واضحة تمنع من حملها على المعنى الأصلي، ولا قرينة مقبولة هنا .
- أنَّ القرينة التي صرفوا لأجلها "لَعَلَّ" عن معناها الأصلي، ــ وهي أنَّ الترجِّي يستلزم الجهل بالعاقبة ، وهذا لا يليق بالحقّ تعالى ــ قرينة ضعيفة بل مردودة ؛ لأنها مبنيةٌ على مساواة ما يوصف به الله ــ تعالى ــ وما يُضاف إليه بما يوصف به المخلوق وما يُضاف إليه ، وهذا مما قرَّر أهل السنّة بطلانه، وأنَّ القاعدة في مثل هذا أنه ــ تعالى ــ : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشُّورى] .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير (٣٣٠/١)، ومعجم حروف المعاني في القرآن الكريم (٩٢٨/٢)، واختيارات ابن القيم وترجيحاته في التفسير (١١٨/١ــ١١٩) .

وفي كلام بعض العلماء المشتغلين بالحَقْل القرآني ما يشير إلى هذا .

فهذا الفخر الرَّازي عند قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السَّجدة] . يذهب إلى أنّ المعنى : لنذيقنهم إذاقة الرَّاجين ، أي: على الوجه الذي يُفعل بالرَّاجي ، أو نذيقهم العذاب إذاقةً يقول القائل : لعلهم يرجعون بسببه. ثُمَّ رأى أنَّ استعمال الرَّجاء في حقِّ الله ــ تعالى ــ جائز خلافاً لمن ذهب إلى غير هذا، وقال ــ رحمه الله ــ: «... غاية ما في الباب أنَّ الرَّجاء في أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلوماً ، فأوهم أن لا يجوز الإطلاق في حقِّ الله ــ تعالى ــ ، وليس كذلك ، بل الترجِّي يجوز في حق الله ــ تعالى ــ، ولا يلزم منه عدم العلم، وإنما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل ، وعلم الله ليس مستفاداً من الفعل ، فيصحّ حقيقة الترجِّي في حقه على ما ذكرنا من المعنى»(١).

وقال الكَفَوي ــ رحمه الله ــ : «وقد تقرّر أنَّ الخصائص الإلهية لا تدخل في أوضاع العربية ، بل هي [يعني : أوضاع العربية] مبنيةٌ على خصائص الــخَلْق ، ولهذا ورد القرآن على العادة فيما بينهم ؛ لأنه خطابٌ لهم»(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤٩/٢٥) .

(٢) الكليات (٧٩٤) .

وفي كلام بعض المعاصرين أنه فسَّرَ "لَعَلَّ"، فقال:«تَـرْجِيَـةٌ من الله واقعةٌ لكماله،

والتَّـرجِيَـةُ مِن غيره مُتَوَقَّعَةٌ لعجزه»(١). وهذا هو معنى قول مَن قال:"لَعَلَّ" مِن الله واجبة(٢).

المطلب الثاني: في معنى التناسب ، وأبرز أنواعه، وفائدته:

التناسب مصدر تناسب يتناسب تناسباً ، ومادته "نَسَبَ".

قال ابن فارس ــ رحمه الله ــ : «"نَسَب" النُّون والسِّين والباء كلمةٌ واحدةٌ قياسُها اتِّصال شيءٌ بشيءٍ . منه النَّسَب، سُمِّيَ ؛

---

(١)تفسير سورة الرّعد للدكتور : محمد مصطفى (٥١) .

(٢)قال الزَّركشي ــ رحمه الله ــ في البرهان (٣٩٣٢/٤ــ٣٩٣) :«فإن قلت: ما معنى قولهم : "لَعَلَّ" من الله واجبة؟. هل ذلك من شأن المحبوب أو مطلقاً ، وإذا كانت في المحبوب ، فهل ذلك إخراج لها عن وضع الترجي إلى وضع الخبر ، فيكون مجازاً أم لا؟. قلت: ليس إخراجاً لها عن وضعها ، وذلك أنهم لـمَّا رأوها من الكريم للمخاطبين في ذلك المحبوب تعريض بالوعد ، وقد عُلِمَ أنّ الكريم لا يعرض بأن يفعل إلا بعد التصميم عليه ، فجرى الخطاب الإلهي مجرى خطاب عظماء الملوك من الخلق، وقوله:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ... الآية إلى : تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة] إطماع المؤمن بأن يبلغ بإيمانه درجة التقوى العالية ؛ لأنه بالإيمان يفتتحها ، وبالإيمان يختتمها . ومِن ثَمَّ قال مالك وأبو حنيفة : الشَّرع مُـلـزم» . وانظر : اختيارات ابن القيم وترجيحاته في التفسير (١٢٣/١ــ١٢٤) .

لاتصاله وللاتِّصال به . تقول : نسبتُ أنسِبُ ، وهو نسيب فلان، ومنه النَّسيب في الشِّعر إلى المرأة، كأنّه ذكْرٌ يتّصلُ بها؛ ولا يكون إلا في النساء . تقول منه : نَسَبْتُ أنسِبُ . والنَّسيبُ : الطريق المستقيم ؛ لاتِّصال بعضه من بعض»(١).

وقال الرَّاغب ــ رحمه الله ــ : «النَّسَبُ والنِّسْبة: اشتراكٌ من جهة أحد الأبوين، وذلك ضربان : نَسَبٌ بالطّول كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونَسَبٌ بالعرض كالنسبة بين بني الأخوة ، وبني الأعمام ، قال ــ تعالى ــ: ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ ﴾ [الفرقان:٥٤] .

وقيل: فلانٌ نسيب فلان ، أي: قريبة، وتستعمل النِّسبة في مقدارين متجانسين بعض التجانس يختص كلٌّ واحدٌ منهما بالآخر»(٢).

والمناسبة مصدرٌ ميميٌّ ، وهي : المشاكلة ، يُقال : بين الشّيئين مناسبةٌ وتناسبٌ ، أي : مشاكلةٌ وتشاكلٌ، وكذا قولهم : لا نسبة بينهما ، وبينهما نسبة قريبة(٣). والنِّسبة :

إيقاع التعلّق بين الشَّيئين(٤).

---

(١) معجم مقاييس اللُّغة (٥/٤٢٣ــ٤٢٤) ، مادة "نسب" .

(٢) مفردات الراغب (٨٠١) ، مادة "نسب" .

(٣) انظر في ذلك كلّه : مختار الصِّحاح (٣٠٩) ، مادة "نسب"، ومعجم مقاييس اللُّغة (٥/٤٢٣ــ٤٢٤) ، مادة "نسب"، وتاج العروس (٤/٢٦٠ــ٢٦١، ٢٦٥) ، مادة "نسب" .

(٤) انظر : التعريفات (٣٠٨) .

والمناسبة والتناسب في الاصطلاح : الرّابطة بين شيئين بأيٍّ وجهٍ من الوجوه[١] .

قال الزَّركشي ــ رحمه الله ــ : «واعلم أنَّ المناسبة علمٌ شريف، تـُحرَزُ به العقول، ويُعْرَفُ به قدرُ القائل فيما يقول . [ثَمَّ بيّن تعريف المناسبة لغةً إلى أن قال] : ومنه المناسبة في العلّة في باب القياس : الوصفُ المقاربُ للحكم ؛ لأنه إذا حصلت مقاربتـُه له ظنّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم .

ولهذا قيل : المناسبة : أمرٌ معقول إذا عُرِضَ على العقول تلقّته بالقبول . وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها . ومَرْجِعُها ــ والله أعلم ــ إلى معنىً مّا رابطٍ بينهما : عام أو خاص ، عقليّ ،أو حسّي ، أو خياليّ ، وغير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذّهني كالسّبب والمسبّب،والعلّة والمعلول،والنّظيرين،والضّدّين، ونحوه ، أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخير»[٢].

وإذاً فالتناسب هو التوافق والانسجام بين مجموعة من الألفاظ ، حتى يكون كلُّ لفظٍ منها موافقاً لغيره، من غير ما تنافر، ولا تَضَاد، وكما يكون في الألفاظ يكون في المعاني .

---

(١)انظر : البرهان في علوم القرآن (٣٥/١) ، ومباحث في التفسير الموضوعي (٥٨) ، ودراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (٧٧).
(٢)البرهان في علوم القرآن (٣٥/١) .

قال الحلبي والنُّويري ــ رحمهما الله ــ:«والتناسب هو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر »(١).

وحاصل ما تقدّم أنَّ التناسب لا يخرج من النسبة بين الشيئين ، فإذا تقرّر هذا فليُعْلَم أنّ الشّيئين أعمّ من أن يكونا في لفظين ، أو معنيين ، أو لفظاً ومعنى؛ لصدقهما في كلِّ مـُمْكِنَين، يؤخذ هذا من قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ ﴾ [الجاثية] ، فاشترك وتساوى جميع ما فيهما في التسخير، فكأنّ التسخير قاسمٌ مشتركٌ لكلِّ ممكنين في الوجود ، فيكون هو وجه التناسب بين ذينك الـمُمْكِنَين. وما التناسبُ البلاغيُّ إلا طرفٌ من هذا؛ باعتباره مِن أفراد الـمُمْكِنَين(٢).

والتَّناسب عند البلاغيين أنواع ، فمنه نوعٌ يُعرف بـ"مراعاة النَّظير" يُعتبر عند أهل تلك الصَّنعة وجهاً من وجوه علم البديع، ويعرفونه في اصطلاحهم : أن يجمع الناظم، أو الناثر أمراً وما يناسبه لا بالتضاد؛ لتخرج المطابقة، سواء كانت المناسبة لفظاً لمعنى،

---

(١)حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل (٢١٢)، ونهاية الأرب في فنون الأدب (١٠٧/٧)، والإيضاح في شرح مقامات الحريري (١٤)، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها (٤٢٠) .

(٢)انظر : حاشية القنوي مع ابن التمجيد على تفسير البيضاوي (١٩٨/٢ــ٢٠٠) .

أو لفظاً للفظ،أو معنىً لمعنى، إذ المقصود جمع شيءٍ إلى ما يناسبه من نوعه، أو ما يلائمه

مِن أيِّ وجهٍ من الوجوه[١].

ومن وجهٍ آخرَ فإنَّ التناسب بين آيات الذّكر الحكيم إمّا يكون من حيث اللّفظ ، وله وجوهه وأسبابه ، وإمّا أن يكون من حيث المعنى بوجود «دعامة تؤذن باتصال الكلام ، وهي قرائن معنوية مؤذنة بالرّبط ، والأول مزجٌ لفظيٌّ، وهذا مزجٌ معنويٌّ»[٢].

قال الشَّيخ الشَّنقيطي ــ رحمه الله ــ : «مراعاة النظير، ويسمَّى: التناسب، والائتلاف، والتوفيق، والتلفيق . فهذه كلُّها أسماء لهذا النوع من البديع المعنوي . وضابطه:

أنه جَــمْعُ أمــر وما يناسبه لا بالــتــضَاد . كقوله ــ تعالى ــ: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن] ، فإنَّ الشَّمس والقمر متناسبان لا بالتضاد»[٣].

وكذلك من صور مراعاة النظير ما يُسمَّى بــ"تناسب الأطراف"، وهو أن يُخْتَم الكلام بما يناسب أوله في المعنى، كقوله ــ تعالى ــ :

---

(١)انظر : أنوار الرَّبيع في أنواع البديع (١١٩/٣)، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها (١١) .

(٢)البرهان في علوم القرآن (٤٦/١) .

(٣)أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٠٨/٤ــ١٠٩) .

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام] . فإن اللُّطف يناسب ما لا يـُدرَك بالبصر، والخبرة تناسب مَن يدرك شيئاً، فإنَّ مَن يدرك شيئاً يكون خبيراً به . ومنه قوله ــ تعالى ــ أيضاً: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الحج] . فقد ختم الآية بقوله : ﴿ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ على أنَّ ما له ليس لحاجة، بل هو غنيٌّ عنه جوادٌ به، فإذا جاد به حَمِدَه الـمُنعَمُ عليه(١).

والمناسبة في كتاب الله ــ تعالى ــ تعني : ارتباط السُّورة بما قبلها وما بعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كلِّ آية بما قبلها وما بعدها(٢).

وقد ذكر المصنِّفون في "علوم القرآن" ، والمتناولون للتفسير الموضوعي، وأرباب البلاغة أنواع المناسبات . وخصَّ أولئك الجِلَّة

---

(١) انظر : الإيضاح في علوم البلاغة (٣٠٦ــ٣٠٧) ، والتلخيص في علوم البلاغة (٣٥٤)، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها (٤٢١) ، وعلم البديع (١/١٧٩، ١٨١) .

(٢) انظر في ذلك كلّه : البرهان في علوم القرآن (١/٣٧ــ٥٠) ، ومباحث في التفسير الموضوعي (٦٨ــ٩٠)، ودراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (٨٣ــ١٠٨)

مسألة التناسب اللّفظي،وساقوا له أنواعاً عديدةً في كتاب الله –تعالى–، منها[١]:

١/المشاكلة، وهي أصل من أصول العربية، تُطْلَب في الكلام، ويُترك لأجلها ما يقتضيه الميزان الصَّرفي ، أو القاعدة الإعرابية، ويقصدها الفصحاء والبلاغيون؛ لِـمَا لها مِن قيمة جمالية . وقد أكد أهل العربية هذا الأصل، فعندهم أنه قد تحدث أشياء توجب تقديم غير الأصل على الأصل؛ للتشاكل، وهو ما يوجب الموافقة . ومن الأمثلة التي يذكرونها على ذلك، قوله ــ تعالى ــ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ [العنكبوت:١٩]. قالوا : إنَّ الفصيح في بدأ يبدأ الثلاثي، ولم يُسمع أبدأ الرُّباعي، لكن فَصُح استعمال الرُّباعي في الآية ﴿ يُبْدِئُ ﴾ مضارع أبدأ ؛ لمناسبته لقوله ــ تعالى ــ: ﴿ يُعِيدُهُۥ ﴾،إذ هو من أعاد الرُّباعي . ثم إن هذا النوع ــ أي : المشاكلة ــ من التناسب يدخل فيه : تناسب الجزاء ، وهو ما يكثر وقوعه في الآيات التي تضمنت الإشارة إلى جزاء الله على الأفعال السيئة؛ كالاستهزاء، والخداع، والمكر، والنسيان .

---

(١)انظر : الإيضاح في علوم البلاغة (٣٠٥ــ٣٠٧، ٣١٠، ٣٣٣ــ٣٣٤، ٣٣٨) ، والبرهان في علوم القرآن (٣٧/١ــ٥٢) ، ومباحث في التفسير الموضوعي (٦٨ــ٩٠)، ودراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (٨٣ــ١٠٨)، و"التناسب اللَّفظي في القرآن" ، مقال منشور في موقع "إسلام ويب" على الشبكة العنكبوتية .

قال الطبري في بيان هذا النوع من التناسب : «وقال آخرون: قوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة:١٤ــ١٥] ، وقوله : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢] ، وقوله : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة:٧٩] ،﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ ﴾ [التوبة:٦٧] ، وما أشبه ذلك، إخبارٌ من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبةَ الخداع. فأخرج خبرَه عن جزائه إياهم وعقابه لهم، مُخْرَج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقُّوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان . كما قال ــ جل ثناؤه ــ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ ﴾ [الشُّورى:٤٠] ، ومعلومٌ أن الأولى من صاحبها سيئة، إذْ كانت منه لله ــ تبارك وتعالى ــ معصية، وأن الأخرى عَدلٌ ؛ لأنها من الله جزاءٌ للعاصي على المعصية، فهما ــ وإن اتفق لفظاهما ــ مختلفا المعنى. وكذلك قوله:﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة:١٩٤]، فالعدوان الأول ظلم، والثاني جزاءٌ لا ظلم، بل هو عدل ؛ لأنه عقوبة للظالم على ظلمه، وإن وافق لفظه لفظ الأول . وإلى هذا المعنى وَجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك، مما هو خبرٌ عن مكر الله ــ جل وعزّ ــ بقومٍ، وما أشبه ذلك»(١).

٢/ومن أنواع التناسب اللَّفظي المناسبة بين مطلع الآية وخاتمتها، وتظهر أهمية هذا النوع من المناسبة من جهة رد آخر الكلام على

(١)جامع البيان (١/٣٠٢ــ٣٠٣) ، تحقيق: شاكر .

أوله، وهذا ما يسمى في الشِّعر بـــ "رد العَجْز على الصَّدْر". ومن أمثلة هذا النوع قوله ــ تعالى ــ: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة]،فقد خُتمت الآية بلفظ "القسط" كما بُدأت بـــه . ومنه قـــوله ــ سبحانه ــ : ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة] ، فبدأت الآية بلفظ "الاعتداء" وخُتمت به . ونحو ذلك كثير . ويشار هنا إلى أن هذا النوع من التناسب قد يقع أيضاً بين آية وأخرى، أو بين بداية السُّورة ونهايتها، وقريبٌ من ذلك المناسبة بين السّورتين المتجاورتين ، وتفصيل القول في ذلك يُطلب في أماكنه .

٣/ومن أنواع التناسب اللَّفظي أيضاً تناسب الجنس ، وهو كثير في القرآن الكريم ، والمراد من هذا النوع : استعمال لفظين، يجمعهما أصلٌ واحدٌ في اللُّغة؛ للدّلالة على معنيين، ويسمى عند البلاغيين "الجناس" . وتناسب الجنس، إما أن يكون تناسباً بين اسم وفعل، كقوله ــ تعالى ــ : ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ [البقرة:٢٧٦] ، فالتناسب اللَّفظي هنا وقع بين كلمتين من أصل واحد ، إحداهما : اسم، وذلك قوله ــ تعالى ــ : ﴿ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾، والثانية : فعل، وذلك قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَيُرۡبِي ﴾ . وإمّا أن يكون تناسب الجنس تـــناسباً بين فعلين، كقوله ــ تعالى ــ:﴿ وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الأنعام]،وإمّا أن يكون التناسب بين اسمين، كقوله ــ تعالى ــ: ﴿ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ ﴾ [آل عمران:١٤] . ولهذا النوع من التناسب اللَّفظي حلاوةٌ وعذوبةٌ ، ووقع بالغٌ في نفس القارئ كبيرٌ .

٤/ومن أنواع التناسب اللَّفظي التناسب الصَّوتي، وهذا النوع من التناسب يكون بين كلمتين لا يجمعهما أصلٌ لغويٌّ واحدٌ، وإنما الذي يجمع بينهما تجانس الصَّوت، الذي يحسن في أذن المستمع.

ومن أمثلة هذا النوع : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ ﴾ [البقرة:١٤٤] ، فثمة تناسب صوتيٌّ بين كلمة:﴿ تَقَلُّبَ ﴾، وكلمة : ﴿ قِبْلَةً ﴾ . ولهما وقع في أُذُن السَّامع . ومنه أيضاً قوله ــ سبحانه ــ :﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ ﴾ [التوبة:٦١] ، فبين قوله ــ سبحانه ــ : ﴿ يُؤْذُونَ ﴾، وقوله : ﴿ أُذُنٌ ﴾ تناسب لفظيٌّ لــمَن تفطَّن له ! . ومن هذا القبيل الكثير في كتاب الله ــ تعالى ــ .

٥/ومن أنواع التناسب اللَّفظي التصوير البيانيّ، والمقصود به : أن تكون هناك وحدة بين أجزاء الصُّورة البيانية، فلا تتنافر جزئياتها، بل تكون متآلفة غاية الائتلاف، ومنسجمة نهاية الانسجام .

ومن أمثلة هذا النوع من التناسب : قوله ــ تعالى ــ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك] ، فقوله ــ سبحانه ــ : ﴿ ذَلُولاً ﴾ تصوير للأرض التي تَسْبَح في الفضاء، والإنسان راكبٌ على ظهرها،في صورة حيوان مركوب، مطيع لراكبه، خاضع لإرادته وحاجته . وقوله ــ تعالى ــ:﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ تعبير مناسب لهذه الصُّورة ، و"المنكب": مجتمع رأس الكتف

والعضد، والمراد: فامشوا في أنحائها، ولو قيل : فامشوا في أنحائها لـــمَا كان مناسباً ، ولفاتت وحدة الصُّورة، وبَعُدَ تناسب أجزائها . وكذلك قوله ــ تعالى ــ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٠٣ــ١٠٤] .

فالمراد من الآية : أنَّ الله ــ سبحانه ــ يدرك الأشياء كلها، دقَّها وجلَّها، واللَّفظ القرآني يؤدي هذا المعنى بطريقة جمعت بين وضوح الدّلالة، وجمال العبارة، ومرجع ذلك تلك المشاكلة اللَّفظية .

وبعد : فإنَّ التناسب لفظياً كان أو معنوياً في القرآن الكريم لا يُتَطَلَّبُ لذاته بل لِـــمَا وراءَه من المعاني الرّائقات؛ إذ هي الأساس والمقصود، وتلك ميزة انفرد بها هذا الذكر الحكيم : أنه استعمل هذه الأنواع التعبيرية، لإيصال المعاني المطلوبة إلى المخاطبين ، فجمع بين الوفاء بحقِّ اللَّفظ ، وفي نفس الوقت الالتزام بأداء حقِّ المعنى كلٍّ على حد سواء .

وقد عَدَّ بعضُ العلماء لعلم المناسبات والتناسب جملةً من الفوائدِ منها(١):

(١)انظر في ذلك : البرهان في علوم القرآن (٣٥/١)، ونظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور (١/٥ــ٦)، والإتقان في علوم القرآن (٩٧٢/٤) .

١/أنه يجعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

٢/أنه يُعين ــ بصورةٍ ظاهرةٍ وفاعلةٍ ــ على التعرّف على علل ترتيب أجزاء القرآن المجيد ، والإطلاع على الرّتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلّق الذي هو كلحمة النسب .

٣/أنه يُظْهِرُ جانب الإعجاز البلاغيّ في كتاب الله ــ تعالى ــ ؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة معاني هذا الذكر الحكيم لِــمَا اقتضاه من الحال .

٤/أنه من الوسائل التي بها «يرسخ الإيمان في القلب ، ويتمكّن من اللُّب، وذلك أنه يكشف أنَّ للإعجاز طريقين : أحدهما : نظم كلّ جملةٍ على حيالها بحسب التركيب، والثَّاني : نظمها مع أختها بالنّظر إلى الترتيب ، والأوّل أقرب تناولاً، وأسهل ذَوْقاً، فإنَّ كلّ مَن سمع القرآن مِن ذكيٍّ وغبيٍّ يهتز لمعانيه ، وتحصل له عند سماعه غيره(١)، وكلّما دقَّق النظر في المعنى عَظُمَ عنده موقع الإعجاز ، ثم إذا عَــبــَرَ الفطنُ مِن ذلك إلى تأمّل ربطِ كلِّ جملة بما تَلَتــْهُ وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأى أنَّ الجمل متباعدة الأغراض متنائية

(١) هكذا في الأصل ، ووجه معناها في السِّياق غريب ! .

المقاصد ، فظنّ أنها متنافرة ، فحصل له من القبض والكَرْب أضعاف ما كان حصل له بالسّماع من الهزّ والبسط ، ربما شكّكه ذلك بكثير ، وزلزل إيمانه ، وزحزح إيقانه ، وربما وقف مَكِيسٌ من أذكياء المخالفين عن الدّخول في هذا الدِّين بعد ما وضحت لديه دلائله ، وبرزت له من حِجَالِها دقائقه وجلائله ؛ لحكمة أرادها منزله ، وأَحْكَمَهَا مُجمِلُهُ ومفصِّلُه ، فإذا استعان بالله ، وأدام الطرق لباب الفَرَج بإنعام التأمّل ، وإظهار العجز والوثوق بأنه في الذّروة من أحكام الرّبط كما كان في الأوج من حسن المعنى واللَّفظ ؛ لكونه كلام مَن جَلَّ عن شوائب النقص ، وحاز صفات الكمال إيماناً بالغيب ، وتصديقاً للربّ ... ، فانفتح له ذلك الباب، ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار، رقص الفكر منه طَرَباً ، وشَكَرُوُا لله ؛ استغراباً وعجباً، وشَاطَ لعظمة ذلك جنانه، فرسخ من غير مِرْيَـةٍ إيمانه، ورأى أنّ المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف بديعة الرَّصْف، عالية الأمر، عظيمة القدر، مباعدة لمعاني الكلام على أنها منها أخذت ... »(١).

٥/أنه يُوقِف صاحبه على الحقِّ من معاني آيات حَارَ فيها المفسِّرون ؛ لتضييع هذا الباب من غير ارتياب ، وينكشف لممارسه غامض معناه ، وبه يتبين أسرار القصص المكررات ، وأنَّ كلَّ سورةٍ

(١)نظم الدُّرر (١/١١ــ١٢) .

أُعيدَت فيها قصّة فَلِمَعْنَى أُدُّعِيَ في تلك السُّورة أُسْتُـدِلَّ عليه بتلك القصّة غير المعنى الذي سيقت له في السّورة السَّابقة .

المطلب الثالث: ذكر مواضع "لَعَلَّ" في القرآن الكريم :

أتت "لَعَلَّ" في كتاب الله ـ ﷻ ـ في نحو تسعةٍ وعشرين ومائة موطن (١٢٩) ، منها تسعة عشر ومائة موطن (١١٩) جاءت فيها "لَعَلَّ" ومَعْمُولاهَا في ختام الآيات، وبيانها كالآتي :

١. الآيات المختومات بـ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، وعددها (٦) آيات[١]، أو﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، وعددها (٦) آيات[٢].

٢. الآيات المختومات بـ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ،وعددها (١٤) آية[٣]،

---

(١)في سورة البقرة آية [٢١]، وآية [٦٣]، وآية [١٧٩] ، وآية [١٨٣] . وفي سورة الأنعام آية [١٥٣] . وفي سورة الأعراف آية [١٧١] .

(٢)في سورة البقرة آية [١٨٧] . وفي سورة الأنعام آية [٥١]، وآية [٦٩] . وفي سورة الأعراف آية [١٦٤] . وفي سورة طه آية [١١٣] . وفي سورة الزّمر آية [٢٨] .

(٣)في سورة البقرة آية [٥٢]، وآية [٥٦]، وآية [١٨٥] . وفي سورة آل عمران آية [١٢٣] . وفي سورة المائدة آية [٦] ، وآية [٨٩] . وفي سورة الأنفال آية [٢٦] . وفي سورة النحل آية [١٤] ،وآية [٧٨] . وفي سورة الحجّ آية [٣٦] . وفي سورة القصص آية [٧٣] . وفي سورة الرّوم آية [٤٦] . وفي سورة فاطر آية [١٢] . وفي سورة الجاثية آية [١٢] .

أو ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ وعددها آية واحدة[١].

٣. الآيات المختومات بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ، وعددها (٦) آيات[٢]، أو ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾، وعددها (٣) آيات[٣].

٤. الآيات المختومات بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، وعددها (٨) آيات[٤].

٥. الآيات المختومات بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وعددها آيتان[٥]، أو ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وعددها (٣) آيات[٦].

٦. الآيات المختومات بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، وعددها (١١) آية[٧].

---

(١) فقط في سورة إبراهيم آية [٣٧] .

(٢) في سورة البقرة آية [٥٣] ، وآية [١٥٠] . وفي سورة آل عمران آية [١٠٣] . وفي سورة الأعراف آية [١٥٨] . وفي سورة النحل آية [١٥] . وفي سورة الزّخرف آية [١٠] .

(٣) في سورة الأنبياء آية [٣١] . وفي سورة المؤمنون آية [٤٩] . وفي سورة السّجدة آية [٣] .

(٤) في سورة البقرة آية [٧٣] ، وآية [٢٤٢] . وفي سورة الأنعام آية [١٥١] . وفي سورة يوسف آية [٢] . وفي سورة النور آية [٦١] . وفي سورة غافر آية [٦٧] . وفي سورة الزُّخرف آية [٣] . وفي سورة الحديد آية [١٧] .

(٥) في سورة البقرة آية [٢١٩] ، وآية [٢٦٦] .

(٦) في سورة الأعراف آية [١٧٦] . وفي سورة النحل آية [٤٤] . وفي سورة الحشر آية [٢١] .

(٧) في سورة البقرة آية [١٨٩] . وفي سورة آل عمران آية [١٣٠] ، وآية [٢٠٠] . وفي سورة المائدة آية [٣٥] ، وآية [٩٠]، وآية [١٠٠] . وفي سورة الأعراف آية =

٧. الآيات المختومات بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وعددها (٦) آيات[٢]،أو ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، وعددها (٧) آيات[٣]،أو﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾، وعددها (٣) آيات[٤].

٨. الآيات المختومات بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ، وعددها (٨) آيات[٥].

=

[٦٩] . وفي سورة الأنفال آية [٤٥] . وفي سورة الحج آية [٧٧] . وفي سورة النّور آية [٣١] . وفي سورة الجمعة آية [١٠] .

(١)في سورة الأنعام آية [١٥٢] . وفي سورة الأعراف آية [٥٧] . وفي سورة النحل آية [٩٠] . وفي سورة النّور آية [١] ، وآية [٢٧] . وفي سورة الذّاريات آية[٤٩].

(٢)في سورة البقرة آية [٢٢١] . وفي سورة إبراهيم آية [٢٥] . وفي سورة القصص آية [٤٣] ، وآية [٤٦] ، وآية [٥١] . وفي سورة الزّمر آية [٢٧] . وفي سورة الدخان آية [٥٨] .

(٣) في سورة الأعراف آية [٢٦] ، وآية [١٣٠]. وفي سورة الأنفال آية [٥٧] .

(٤)في سورة آل عمران آية [١٣٢] . وفي سورة الأنعام آية [١٥٥]. وفي سورة الأعراف آية [٦٣] ، وآية [٢٠٤] . وفي سورة النور آية [٥٦] . وفي سورة النمل آية [٤٦] . وفي سورة يس آية [٤٥] . وفي سورة الحجرات آية [١٠] .

٩. الآيات المختومات بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، وعددها (٩) آيات[١]، أو ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٢].

١٠. الآيات المختومات بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ، وعددها آيتان[٣].

١١. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٤]، أو ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٥].

١٢. ما ختم بـــ﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٦].

١٣. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٧].

١٤. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ تَحْذَرُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٨].

١٥. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٩].

---

(١) في سورة آل عمران آية [٧٢] . وفي سورة الأعراف آية [١٦٨] ، وآية [١٧٤] . وفي سورة يوسف آية [٦٢].وفي سورة الرّوم آية [٤١].وفي سورة السّجدة آية[٢١]. وفي سورة الزُّخرف آية [٢٨] ، وآية [٤٨] . وفي سورة الأحقاف آية [٢٧] .

(٢) فقط في سورة الأنبياء آية [٥٨] .

(٣) في سورة النمل آية [٧] . وفي سورة القصص آية [٢٩] .

(٤) فقط في سورة الأنعام آية [٤٢] .

(٥) فقط في سورة الأعراف آية [٩٤] .

(٦) فقط في سورة الأنعام آية [١٥٤] .

(٧) فقط في سورة يوسف آية [٤٦] .

(٨) فقط في سورة التوبة آية [١٢٢] .

(٩) فقط في سورة الأنبياء آية [٦١] .

١٦. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[١].

١٧. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْعَلُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٢].

١٨. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٣].

١٩. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٤].

٢٠. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٥].

٢١. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٦].

٢٢. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٧].

٢٣. ما ختم بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٨].

٢٤. ما ختم بـــ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[٩].

٢٥. ما ختم بـــ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَبَ ﴾ ، وعددها آية واحدة[١٠].

---

(١) فقط في سورة النحل آية [٨١] .

(٢) فقط في سورة الأنبياء آية [١٣] .

(٣) فقط في سورة الرّعد آية [٢] .

(٤) فقط في سورة الشعراء آية [١٢٩] .

(٥) فقط في سورة فصلت آية [٢٦] .

(٦) فقط في سورة البقرة آية [١٨٦] .

(٧) فقط في سورة الأنعام آية [٦٥] .

(٨) فقط في سورة التوبة آية [١٢] .

(٩) فقط في سورة يس آية [٧٤] .

(١٠) فقط في سورة غافر آية [٣٦] .

٢٦. آية ختامها ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ ، وعددها آية واحدة(١).

٢٧. آية ختامها ﴿ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ، وعددها آية واحدة( ).

٢٨. آية ختامها ﴿ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ، وعددها آية واحدة(٣).

٢٩. آية ختامها ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ ، وعددها آية واحدة(٤).

٣٠. آية ختامها ﴿ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ ﴾ ، وعددها آية واحدة(٥).

٣١. آية ختامها ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ ، وعددها آية واحدة( ).

٣٢. آية ختامها ﴿ لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ، وعددها آية واحدة(٧).

هذه المواطن التي ختمت فيها ا لآيات بـــ"لَعَلَّ" ومَعْمُوليها ، وإن كانت "لَعَلَّ" قد أتت بغير هذا القيد في عشرة مواضع أخرى(٨) .

---

(١)فقط في سورة طه آية [١٣٠] .

(٢)فقط في سورة الأحزاب آية [٦٣] .

(٣)فقط في سورة الشّورى آية [١٧] .

(٤)فقط في سورة الطلاق آية [١] .

(٥)فقط في سورة عبس آية [٣] .

(٦)فقط في سورة طه آية [٤٤] .

(٧)فقط في سورة الأنبياء آية [١١١] .

(٨)في سورة هود آية [١٢] . وفي سورة يوسف آية [٤٦] ، وآية [٦٢] . وفي سورة الكهف آية [٦] . وفي سورة الشعراء آية [٣] ، وآية [٤٠] . وفي =

ولا ريب أنَّ دراسة أوجه التناسب في كلِّ تلك الآيات الكريمات ــ سواءً كانت على شكل حُزم ومجموعات ، أو كانت كلّ آية منها على حِدَة ــ وفق آلية علمية منضبطة أنه عملٌ يطول جِدّاً، ولذا آثر هذا البحث الوجيز أخذ عينةٍ من تلك الآيات الكريمات ، حُصِرَتْ في الآيات المختومة بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾،و﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. ومِن ثَمَّ محاولة تلمّس أوجه التناسب فيها بما يُعْطِي ــ عموماً ــ جملة من ملامح التناسب في المواطن الأُخرى التي لم تتمّ دراستها .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

=

سورة طه آية [١٠] . وفي سورة المؤمنون آية [١٠٠] . وفي سورة القصص آية [٢٩] ، وآية [٣٨] .

المبحث الثاني : تناسب الآيات المختومة بـ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول: تناسب الآيات المختومة بـ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وردت آيتان كريمتان اثنتان مُذَيَّلَتَان بهذا الختم ، وهما :

١. قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ ﴾ [البقرة:٢١٩ــ٢٢٠] .

٢. وقول الله ــ تعالى ــ: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾[البقرة].

وقبل تلمُّس أسرار التناسب فيهما فإنه يحسن تعريف معنى التفكّر بشكل موجز؛ حتى يتسنّى إدراك التناسب في الآيتين السَّابقتين بصورة أظهر .

فالتفكّر مادته "فكر"، والتفكر : اسمٌ للتفكير ، والتفكُّر: التأمّل(١).

قال ابن فارس ــ رحمه الله ــ : «الفاء والكاف والرّاء : تردّد القلب في الشّيء، يقال: تفكَّر إذا ردَّدَ قلبه معتبراً ، ورجلٌ فِكِّير : كثير الفِكْر»(٢).

وفي التعريفات : «التفكُّر تصرُّف القلب بالنـّـَظر في الدَّليل»(٣).

وقيل : التفكّر : تصرُّف القلب في معاني الأشياء؛ لدرك المطلوب.

وقيل : التفكّر : سراجُ القلب يرى به خيره وشره، ومنافعه ومضاره، وكلُّ قلبٍ لا تفكّر فيه فهو في ظلمات يتخبط . وقيل : هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء(٤).

وقيل : التفكر في الشيء : إجالة الفكر فيه وتردّده، والفِكْر : هو الذِّهن(٥) .

---

(١) انظر : تهذيب اللُّغة (١١٦/١٠) ، مادة "فكر"، والصّحاح (٧٨٣/٢) ، مادة "فكر" .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤٤٦/٤) ، مادة "فكر".

(٣) التعريفات (٥٤) .

(٤) انظر : التعريفات (٦٣) . وللتوسُّع انظر : تاج العروس (٣٤٥/١٣) ، مادة "فكر".

(٥) انظر : البحر المحيط (٤٠٠/٢) .

وعند الرَّاغب أنَّ «الفِكْرَة : قوّة مطرقة للعلم إلى المعلوم ، والتَّفَكُّرُ : جَوَلان تلك القوّة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب ... . قال بعض الأدباء : الفِكْرُ مقلوب عن الفَرْك، لكن يستعمل الفِكْرُ في المعاني، وهو فَرْك الأمور وبحثها ؛ طلباً للوصول إلى حقيقتها»(١).

وإذا كان التفكّر في الأمور يكون تارةً بالقلب ، وبالعقل والذِّهن تارةً أُخرى ، فلا جَرَمَ أنه يـُورثُ أربابه العلوم ، ويُنشِئُ لديهم المعارف، ويبني عندهم التصوّرات ، وهو وسيلتها الـمُعْتَمَدَة، ومَعْبَرُهَا الفسيح،«وهو يدُ النفس التي تنالُ بها المعلومات كما تنال بيد الجسم المحسوسات»(٢) .

وبالنظر مليّاً في تلك الآيتين الكريمتين المختومتين بمادة التفكّر ، يظهر أنَّ أبـرز مظهر للتـناسب فيهما ما أُودِعَ بين طياتهما من دواعي التفـكُّـر ، وأسبـابـه .

ولَعَلَّ الرِّباط الجامع بينهما خاصَّةً : أنَّ كلتيهما قد ذَكَرَ الحقُّ ــ عَزَّ شأنُه ــ فيهما أنَّ بيانَ الآياتِ سبيلٌ لحصول التفكُّر؛ إذِ ختامُهُمَا : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

---

(١)مفردات الراغب (٦٤٣) ، مادة "فكر" .

(٢)نظم الدرر (٣/٢٦٢ــ٢٦٣) .

و"لَعَلَّ" في الآية الأولى ــ أعني قوله ــ تعالى ــ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ ــ دائرةٌ «بين التعليل والترجِّي»(١). وعليه فإنَّ معنى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، أي : لكي تتفكّروا في الآيات، أو راجين للتفكّر فيها.

قال البقاعي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، أي : لتكونوا على حالة يُـرْجَى لكم معها التفكُّر، وهو طلب الفِكْر »(٢) .

وقال الألوسي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ في الآيات ، فتستنبطوا الأحكام منها ، وتفهموا المصالح والمنافع المنوطة بها ، وبهذا التقدير حَسُنَ كون ترجّي التفكّر غاية لتبيين الآيات في الدُّنيا والآخرة»(٣).

وعند أبي حيان الأندلسي أنَّ "لَعَلَّ" في الآية الكريمة جاريةٌ مجرى التعليل، فهي كالمتعلّقة بـــ ﴿ يُبَيِّنُ ﴾، ويحتمل أن تكون جملة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ اعتراضية(٤) .

---

(١)انظر : لعل في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٦٥) .
(٢)نظم الدرر (٣/٢٦٢ــ٢٦٣) .
(٣)روح المعاني (١/٥١٠) .
(٤)انظر : البحر المحيط (٢/٤٠٩ــ٤١٠) .

والترتيب العقلي ، والتدرّج المنطقي يقضي بمثل هذا الختم البديع في تلك الآية الكريمة ، فضلاً عن توظيف "لَعَلَّ" هنا للدّلالة على المراد، سيّان كانت للتعليل أو للترجّي، فالموضع موضع بيان أحكام، وسوق تشريعات مـُحْكَمَةٍ في صورة أوامر ونواهي، ومن ثَمَّ فإنَّ الـمُكَلَّفَ الأولَ، الوارد إليه تلك التشريعات والأحكام ، الذي عاصر التنزيل أوّل وَهْلَة ، المتأثّر بخلفية ماضيه القريب لا سبيلَ لزَرْع يقينه بها ، وتعديل سلوكياته السَّابقة سوى أن يلجئه البيان إلى مراعاتها من خلال سلطان المفاسد والمصالح ، اللَّذين لا يخرج عاقلٌ عادةً عن إسارها، واستصحابها في ذهنه مرّة تلو أُخرى . مع أنهم ـــ هم السَّائلون كما بدأت الآية بذلك ، والسّائل غالباً مُرْخ سَمْعَه ، مُفَرِّغ قلبَـهُ ، للإجابة .

كذا فإنَّ الخمر والميسر ـــ على جهة الخصوص ـــ شأنها عند العربيِّ قديم ومتجذِّر، ولقد كانتا سمة عصر ما قبل الاسلام، أشعارهم ومآثرهم وأدبياتهم طافحة بهما، يُعْمِلُونَهَا لكسب الشّرف والمجد والمدح حيناً ، وحيناً آخر لغير ذلك ، فلا ريب أنَّ نَزْعَ حبهما من أفئدة أصحابهما ، ومحوهما من عقول أربابهما ـــ والحال ما تقرر ـــ يحتاج لزاماً لحشدٍ ليس باليسير للأدلة، ونَشْرِهَا لهم على فتراتٍ متقاربةٍ، وسوق للبراهين الكاشفة لضمائر الـمُتَلَقِّين أنَّ في تجنبهما ـــ مع ما فيهما من منافع عندهم ـــ المنزلة المحمودة، والعاقبة الرَّشيدة في الدُّنيا والآخرة.

قال البـِقَاعي ــ رحمه الله ــ : «لَــمَّا بيّن الأحكام الماضية في هذه السُّورة أحسن بيان، وفصَّل ما قَصَّ مِن جميع ما أراد أبدع تفصيل لا سيما أمر النفقة ، فإنه بيـّنَها مع أول السُّورة إلى هنا في أنواع من البيان على غاية الحكمة والإتقان ، كان موضع سؤال : هل يـُبـّيـّنُ لنا ربـّنَا غير هذا مِن الآياتِ كهذا البيان؟.

فقال : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ ، أي : مثل ما مضى من هذا البيان العليّ الرّتبة البعيد المنال عن منازل الأرذال ، ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ﴾ الذي له جميع صفات الكمال، ﴿ لَكُمُ ﴾، جميع ﴿ ٱلْأَيَـٰتِ ﴾»(1) .

وقد عَرَضَ الطبريُّ لبيان هذا الجزء من الآية بتفسير شامل مبين، إذ قال ــ رحمه الله ــ : «يعني بقوله ــ عَزَّ ذِكْرُهُ ــ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ﴾، هكذا يبين، أي : كما بينتُ لكم أعلامي وحُجَجي ــ وهي آياته ــ في هذه السُّورة(2)، وعرَّفتكم فيها ما فيه خَلاصكم من

(١)نظم الدرر (٣/٢٦٢ــ٢٦٣) .

(٢)أتت أقوال في بيان عَوْدَ اسم الإشارة من قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ﴾ .

والخلاصة : أنّ الإشارة تعود إما إلى أقرب مذكور ، وهو حال المنفق ، كما ذكره ابن الأنباري والألوسي .

وإما إلى بيان ما سألوا عنه من مصرف النفقة ، وحكم القتال ، وتبيين حاله في الشهر الحرام، وتبيين حال الخمر والميسر ، وتبيين مقدار النفقة . وإما عودها إلى بيان حكم الخمر والميسر فقط ، وهو بعيدٌ كما قال أبو حيان .

=

عقابي، وبينتُ لكم حدودي وفرائضي، ونبَّهتكم فيها على الأدلة على وحدانيتي، ثُمَّ على حُجج رسولي إليكم، فأرشدتكم إلى ظهور الهُدَى ، فكذلك أبيـّنُ لكم في سائر كتابي الذي أنزلته على نبيِّي محمدٍ ﷺ آياتي وحُججي، وأوضحها لكم ؛ لتتفكروا في وَعْدِي ووعيدي، وثوابي وعقابي، فتختاروا طاعتي التي تنالون بها ثوابي في الدَّار الآخرة، والفوز بنعيم الأبد على القليل من اللذَّات ، واليسير من الشَّهوات، بركوب معصيتي في الدُّنيا الفانية، التي مَن ركبها كان مَعَادُهُ إليَّ، ومصيره إلى ما لا قِبَل له به من عقابي وعذابي»(١).

وإنَّ بيان القرآن الكريم للأحكام الشَّرعية ولغيرها من المُبيَّنَات لا يُضَاهيه في ذلك كتاب آخر، وهذا التبيين إما بإنزالها واضحة الدّلالة ، أو بإزالة إجمالها بآية أُخرى ، أو ببيان من قِبَل الرّسول ﷺ ، وهذا لا يُدْرَك الا بالتفكر والتأمّل .

قال الشَّيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ : «ولَمَّا بيّن ـ تعالى ـ هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه ، قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ ، أي : الدَّالات على الحق، المحصلات للعلم النافع

=

وإما إلى جميع ما سبق في السّورة من أحكام ، وهو أبعد . انظر في تلك الأوجه : الكشّاف (٢٦٣/١) ، والمحرر الوجيز (٢٩٥/١)، والبحر المحيط (٤٠٨/٢)، وروح المعاني (٥١٠/١)، والتحرير والتنوير (٣٥٢/٢ـ٣٥٣).

(١)جامع البيان (٣٤٧/٤ـ٣٤٨) تحقيق : أحمد شاكر .

والفرقان، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ ، أي : لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شَرْعِه، وتعرفوا أنَّ أوامره فيها مصالح الدُّنيا والآخرة، وأيضاً لكي تتفكَّروا في الدُّنيا وسرعة انقضائها، فترفضوها ، وفي الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء ، فتعمروها»(١).

والقرآن الكريم في حال مطالبته وحثّه المؤمنين أن يتفكّروا ، مُبيّناً لهم الحقائق العظيمة في مسائل كبرى لها تعلُّقاتها بالنّفوس ، والأجساد ، والأحوال مع الذّات ومع الآخرين ، لا يُغْفِلُ أن يربّيَ فيهم الشّعور بالآخرة كما يشعرون بالدّنيا وأشدّ، فالآخرة هي الباقية، وهي المُسلِيّة، وهي الحافزة. «فهذا البيان لاستجاشة التفكّر والتدبّر في أمر الدُّنيا والآخرة ، فالتفكر في الدُّنيا وحدها لا يُعْطِي العقل البشري ولا القلب الإنساني صورةً كاملةً عن حقيقة الوجود الإنساني،وحقيقة الحياة وتكاليفها وارتباطاتها، ولا ينشئ تصوراً صحيحاً للأوضاع والقيم والموازين ؛ فالدُّنيا شطر الحياة الأدنى والأقصر، وبناء الشُّعور والسُّلوك على حساب الشَّطر القصير لا ينتهي أبداً إلى تصوّر صحيح ، ولا إلى سلوك صحيح .

ومسألة الإنفاق بالذَّات في حاجة إلى حساب الدُّنيا والآخرة ، فما ينقصُ من مال المرء بالإنفاق يُرَدُّ عليها طهارةً لقلبه، لمشاعره ، كما يُرَدُّ عليه صلاحاً للمجتمع الذي يعيش فيه، ووئاماً ، وسلاماً .

---

(١)تيسير الكريم الرحمن (٩٨) .

ولكنَّ هذا كلّه قد لا يكون ملحوظاً لكلِّ فردٍ، وحينئذ يكون الشُّعور بالآخرة، وما فيها من جزاء، وما فيها من قيم وموازين، مُرَجِّحاً لِكَفَّةِ الإنفاق، تطمئن إليه النفس، وتَسْكُن له ، وتستريح، ويعتدل الميزان في يـَدِهَا فلا يرجح بقيمة زائفة ذات لألاءَ وبريق»(١).

وفي جملة : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ من المعاني والأسرار البلاغية ما يتحقّق به التجانس ــ اللُّغوي لا الاصطلاحي ــ البليغ ، والتناسب الظّاهر بينها وبين ما قبلها بما يخلب الألباب ، ويستهوي الذّائقة اللّغوية لدى السّامع المخاطب بها .

قال ابن عاشور ــ رحمه الله ــ : «وقَرَنَ اسم الإشارة بعلامة البعد ؛ تعظيماً لشأن المشار إليه ؛ لكماله في البيان، إذ هو بيان للحُكْم مع بيان عِلَّته ؛ حتى تتلقاه الأمة بطيب نفس، وحتى يـُلْحِقُوا به نظائره،وبيان لقاعدة الإنفاق بما لا يشذ عن أحدٍ من المنفقين،ولكون الكاف لم يقصد بها الخطاب، بل مجرد البعد الاعتباري؛ للتعظيم، لم يُؤت بها على مقتضى الظاهر من خطاب الجماعة ، فلم يقل : "كذلكم" على نحو قوله : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ﴾ .

واللام في ﴿ لَكُمُ ﴾ للتعليل والأَجْل ، وهو امتنانٌ وتشريفٌ بهذه الفضيلة ؛ لإشعاره بأنَّ البيان على هذا الأسلوب مما اختصت به هاته الأمة ؛ ليتلقّوا التكاليف على بصيرة بمنزلة الموعظة التي تـُلْقَى إلى

---

(١)في ظلال القرآن (١/٢٣١ــ٢٣٢) .

كامل العقل مُوَضَّحَةً بالعواقب ؛ لأن الله أراد لهاته الأمة أن يكون علماؤها مُشَرِّعين . وبيّـَن فائدة هذا البيان على هذا الأسلوب بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ ، أي : ليحصل للأمة تفكُّرٌ وعِلْمٌ في أمور الدُّنيا وأمور الآخرة؛لأنَّ التفكُّرَ مظروف في الدُّنيا والآخرة، فتقدير المضاف لازم بقرينة قوله: ﴿ وَٱلْآخِرَةِ ﴾، إذ لا معنى لوقوع التفكّر يوم القيامة ، فلو اقتصر على بيان الحظر والوجوب، والثواب والعقاب ، لكان بياناً للتفكُّر في أمور الآخرة خاصة ، ولو اقتصر على بيان المنافع والمضار بأن قيل : قل فيهما نفع وضر ، لكان بياناً للتفكّر في أمور الدنيا خاصة، ولكنَّ ذِكْر المصالح والمفاسد ، والثواب والعقاب تذكيرٌ بمصلحتي الدّارين، وفي هذا تنويه بشأن إصلاح أمور الأمة في الدنيا ... »[1].

وثَمَّة نظرةٌ فاحصةٌ عند بعض المفسّرين المتناولين لهذا الجزء من الآية الكريمة، وهم يدأبون في تحقيق الرّبط بين ألفاظها وجُمَلِها ، مُسْتَوحِين من مفرداتها مَظْهَرَ التناسب الـمُقْنِـع ، ووصفَهُ المنسجمَ مع جو السّياق العام، بل يذهبون درجةً أبعد وأعلى ــ هنا ، وفي مواطن أُخرى ــ ، إذ يـُؤَصِّلُونَ أنَّ الإسلامَ داعيةٌ لاستعمال التفكّر البنـّاء لجلب خيري الدّارين،لا كما يـَفْهَمُهُ بعضُ بنيـه وغيرُهُم من خصومه ، وهم يـُقْصُونـَهُ بعيداً في زاويةٍ ضيقةٍ من حياتهم ، لا تعدو تأدية بعض الشّعائر الحركية فحسب !.

---

(١)التحرير والتنوير (٢/٣٥٢ــ٣٥٣) .

قال الشيخ المراغي ــ رحمه الله ــ : «ثم ذَكَرَ مِنَنَهُ على عبادِهِ ببيان هذه الأحكام ، فقال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ ، أي : على هذا النحو من البيان قَضَتِ الحكمةُ بأن يبين لكم الأحكام التي فيها مصالحكم ومنافعكم ، ويوجّه عقولكم إلى ما فيها من منافع ومضارّ.

ثُـمَّ ذَكَـرَ الحكـمـةَ في شَـرْع هـذه الأحكـام ، فقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ ، أي : لتتفكروا في شئونهما معاً، فتجتمع لكم مصالح الرُّوح والجسد ، وتكونوا أمةً وَسَطَاً، لا كَمَن ظنوا أنَّ الآخرة لا تُنَالُ إلا بترك الدُّنيا ، وإهمال منافعها ، فخسروها وخسروا الآخرة، إذ الدُّنيا مزرعةُ الآخرة، ولا كالذين انصرفوا إلى اللّذات، ففسدت أخلاقهم، وأظلَمَت أرواحُهم، وصاروا كالبهائم، وخسروا الآخرة والدُّنيا .

وهذه الآية وما مَاثَلَهَا ترشِد إلى أنَّ الإسلام هادٍ إلى سَعَةِ دائرة الفِكْر ، واستعمال العقل فى مصالح الدَّارين معاً .

ومِن ثَمَّ قال العلماء : إنّ الفنون والصِّنَاعات التي يحتاج إليها الناس فى معايشهم من الفروض الدينية، إذا أهملتِ الأمةُ شيئاً منها ، ولم يقم مِن أفرادها مَن يكفيهم أمرها، كانت عاصية لأمر ربها مخالفة لدينه .

وعلى هذا سارت الأمة الإسلامية في القرون الأولى، فكانت إذا احتاجت إلى شيء مما يستدعيه التوسُّع في العمران، عَدَّتِ القيامَ به مِن فروض الدين ، إلى أن غلا أقوام فى الدِّين ، وأهملوا مصالح

الدُّنيا زَعْماً منهم بأنَّ ذلك مِن الزُّهد المطلوب والتوكُّل المحبوب، وما هو منهما في شيء»(١).

وإذْ قدِ انقضى الحديث عن تلك الآية الكريمة ، وبيان وجه المناسبة بين ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ ، وما قبلها ، فالحديثُ آتٍ إلى الآية الثانية ــ أعني قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ ــ ، وعليه فإنَّ "لَعَلَّ" في هذه الآية للتعليل(٢)، أو للترجِّي(٣). ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾؛ أي : لتتفكروا بعقولكم، فتتدبَّروا ، وتعتبروا بحجج الله فيها ، وتعْمَلُوا بما فيها من أحكامها ، فتطيعوا الله به(٤).

---

(١)تفسير المراغي (١٤٧/٢) .

(٢)انظر: لعل في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٥٢)،وتفسير ابن عثيمين : الفاتحة والبقرة (٣٣٢،٣٣٦/٣).

(٣)انظر : المحرر الوجيز (٣٦٠/١ــ٣٦١) .

(٤)انظر : جامع البيان (٥٥٤/٥) تحقيق: شاكر ، وروح المعاني (٣٨/٢) .

وقال القرطبي ــ رحمه الله ــ : «﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ يريد : كي ترجعوا إلى عَظَمَتي وربوبيتي ، ولا تتخذوا من دوني أولياء»(١) .

وقال ابن عطية ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ ترجٍّ في حقِّ البشر، أي : إذا تأمّل من يُبيـّن له هذا البيان رُجِيَ له التفكّر ، وكان أهلاً له»(٢).

وقال البـِقَاعي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، أي : ليكون حالكم حال مَن يُرْجَى أن يَحْمِلَ نفسه على الفِكْر ، ومَن يكون كذلك ينتفع بفِكْره»(٣) .

وركيزةُ تناسب "لَعَلَّ" ومعموليها في هذه الآية الكريمة مع ما قبلها هو مسألة تبيين الآيات ، وبالتبصّر فيها ملياً يظهر هناك وجه التناسب كظهور البَدْر في ليلة التمام، وكالشَّمس في رابعَةِ النّهار.

وقبل بيان وجه هذا التـّناسب لا بد من الإشارة إلى أنَّ هذه الآية سيقت مساق ضرب المثل لحال المنفق ماله ، وفي دَخِيـلَتِـه أنه لا يرجو بهذا الإنفاق لا الله ــ تعالى ــ، ولا اليوم الآخر، فضلاً عمّا انضاف إلى هذا الدَّخَن في النـّيـة من الأذى الظّاهر الواصل إلى

---

(١)الجامع لأحكام القرآن (٣/٣٢٠) .

(٢)المحرر الوجيز (١/٣٦٠ــ٣٦١) .

(٣)نظم الدرر (٤/٨٨ــ٨٩). وانظر : التحرير والتنوير (٣/٥٥) .

الـمُتَصَدَّق عليه مَـنـاً ، وإظهاراً للفضل عليه . «وهكذا حال من يفعل الخير ، ويبذل المال ، ويُحْبِطُ عَمَلَه بالرّياء ، أو بالمنّ والأذى ، فإنه يأتي يوم القيامة وهو أشدّ ما يكون حاجةً إلى ثواب ما بذل ، لكنه يجد إعصار الرّياء، والمنّ، والأذى أبطل ما فعل من الخير، وجَعَلَه هباءً منثوراً، فأصبح يُقلّب كفيّه نادماً، ولَاتَ ساعةَ مندَم»(١).

بل ويذهب بعض المفسّرين إلى وجهٍ آخر من أنَّ هذا المثل إنما هو مثلٌ مضروبٌ لمن عمل أعمالاً لوجه الله ــ تعالى ــ من صدقةٍ، أو غيرها، ثُمَّ عمل من المعاصي ما يَرْجحُ ويُغْرقَها. وفي هذا المعنى ما أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ، والحاكم في مستدركه عن عُبَـيد بن عمير عن عمر ــ رضي الله عنه ــ، أنه قـال : «يوماً لأصحاب النبيِّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ : فيمَ تَرَونَ هذه الآية نزلت : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ... إلخ ﴾؟. قالوا : الله ــ تعالى ــ أعلم . فغضب عمر، فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم . فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين . فقال عمر : يا ابن أخي قُل ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس: ضُربَـت مثلاً لعمل، فقال عمر : لرجل غنيٍّ يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطان يعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها، وكانت له جنة فاحترقت عند أحوج ما كان إليها، حين كَثُرَ الولدً ، وبلَغَ هو الكِبر .

---

(١)تفسير المراغي (٣/٣٧ــ٣٨) . وانظر : الكشّاف (١/٣١٣ــ٣١٤) .

قال: أيــبغــي أحدُكُم أن يوافي يوم القيامة عبداً أفقرَ ما كان إلى عمله ، فلا يوافي له شيء»[١].

وثمَّة قولٌ ثالثٌ : أنَّ ذلك إنما هو في المنافق والكافر .

قال القرطبي ــ رحمه الله ــ:«هذا مثل ضربه الله ــ تعالى ــ للكافرين والمنافقين، كهيئة رجل غرس بستاناً ، فأكثر فيه من الثمر ، فأصابه الكِبَرُ ، وله ذرية ضعفاء ــ يريد صبياناً بناتٍ وغلماناً ــ ، فكانت معيشته ومعيشة ذريته من ذلك البستان، فأرسل الله على بستانه ريحاً فيها نار، فأحرقته، ولم يكن عنده قوةٌ فيغرسه ثانية، ولم يكن عند بــَنــِيــهِ خيرٌ فيعُودُون على أبيهم. وكذلك الكافر والمنافق إذا وَرَدَ إلى الله ــ تعالى ــ يوم القيامة ليست له كرَّة يُبْعَثُ فيردّ ثانية، كما ليست عند هذا قوة فيغرس بستانه ثانية، ولم يكن عند مَن افتقرَ إليه عند كبر سنه وضعف ذريته غِنــَىً عنه»[٢].

---

(١)جامع البيان (٥٤٤/١ــ٥٤٥) برقم (٦٠٩٤) تحقيق شاكر، عن عطاء ، وبرقم (٦٠٩٦) عن عُبَيد بن عمير، والحاكم في مستدركه (٦٢٥/٣) برقم (٦٣٠٧).

قال الحاكم بعده : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» .

وعن الحسن البصري قال : «هذا مثلٌ قَــلَّ واللهِ مَن يعقلُهُ من الناس : شيخ كبير ضَعُفَ جسمُهُ ، وكَثُرَ صبيانه ، أفقرَ ما كان إلى جنته، وإنَّ أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدُّنيا» .

انظر : الكشّاف (٣١٣/١ــ٣١٤) .

(٢)الجامع لأحكام القرآن (٣٢٠/٣) .

وأيّاً ما ذكَرُوا في الـــمُتَوَجَّهِ إليهم ذلك المثل المضروب ، ـــ الذي أضحى غايةً في الحسن والبيان، ونهاية في الكمال ـــ، فإنَّ الذي يعنينا منه أنه يُبـــيـــنُ لنا عن جزءٍ من الصُّورةِ البديعةِ في عِلَّةِ ختم الآية بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، مِن أنه «لـــمَّا بيـّـَن لهم هذا البيان ، الذي أبهت بـُـلَغَاءَ الإنس والجان، نبـّـَهَهم على تعظيمه؛ لتبجيله وتكريمه بقوله مستأنفاً : ﴿ ﴾ كَذَٰلِكَ ، أي : مثل هذا البيان، ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ﴾، أي : الذي له الكمال كلّه، ﴿ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾، أي : كلّها ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، أي : ليكون حالكم حال مَن يُرْجَى أن يَحْمِلَ نفسه على الفِكْر، ومَن يكون كذلك ينتفع بـــفِكْره»[1].

قال الحَرَالِي ـــ رحمه الله ـــ : «فكانوا في ذلك صنفين بما يُشْعِرُ به ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾، مطَابقين للمَثَل : متفَكِّرٌ مُضَاعَفٌ حرثـُـهُ وجنـّـَتـُـهُ، وعاملٌ بغير فِكْرةٍ، تستهويه أهواء نفسه، فتلحقه الآفة في عمله في حرثه وجنته مِن سابقه أو لاحقه»[2].

وفي استعراض يسير لتناول أهل التفسير ـــ رحمهم الله ـــ لذلك الجزء بعينه من الآية الكريمة ـــ أعني:﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ـــ بمختلف مدارسهم الأثرية، والمنسوبة للرَّأي يظهر مدى تعاملهم الرَّشيد مع مفرداتها ، وجُمَلِهَا، وكيف أنّ كلَّ واحدٍ منهم

---

(١)نظم الدرر (٤/٨٨ـــ٨٩) .
(٢)نظم الدرر (٤/٨٨ـــ٨٩) .

نظر لزاوية معينة، وباعتبار محدَّد، ومِن ثَمَّ انتزع مِن ذلك المقطع الوجيز ما أشرقَ به البيان ، وتنوعّت معه الدّلالةً ، وتناسق به المقطعُ الـــمَعْنيُّ مع جو الآية العام ، فضلاً عن انسجامه والسِّياق بصورةٍ رائقةٍ رائجةٍ ، بحيث مَن نظر إلى ذلك العرض لديهم ، يقف عند أحدهم على ما ليس عند الآخر، بشكل تكاملي ٍبناء، يظهر منه عظمة هذا القرآن المجيد .

قال الطبريُّ ــ رحمه الله ــ : «كما بيَّن لكم ربُّكم ــ تبارك وتعالى ــ أمَر النفقة في سبيله، وكيف وجْهُها، وما لكم ، وما ليس لكم فِعْلُهُ فيها ، كذلك يبيـّـُن لكم الآيات سِوى ذلك، فيعرّفكم أحكامها ، وحلالها وحرامها، ويوضّح لكم حُججها ؛ إنعاماً منه بذلك عليكم»(١).

وقال أبو إسحاق الزّجّاج ــ رحمه الله ــ : «أي : كَمَثَل بيان هذه الأقاصيص،﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ﴾ ، أي : العَلاَمَات والدّلالات التي تَحتَاجُون إِليها في أمْر توحيده، وإثْبَات رسالات رسله، وثوابه وعقابه»(٢).

وقال الفخر الرّازي ــ رحمه الله ــ : «ثم قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ﴾ ، أي : كما بين الله لكم آياته ودلائله في هذا الباب ؛

(١)جامع البيان (٥٥٤/٥) تحقيق : شاكر .
(٢)معاني القرآن وإعرابه (٣٤٨/١ــ٣٤٩) .

ترغيباً وترهيباً، كذلك يبين الله لكم آياته ودلائله في سائر أمور الدّين؛ لعلكم تتفكرون»(١).

وقال الألوسي ــ رحمه الله ــ : «﴿ كَذَٰلِكَ ، أي : مثل ذلك البيان الواضح الجاري في الظُّهور مجرى الأمور المحسوسة ، ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، أي : كي تتفكروا فيها ، وتعتبروا بما تضمَّنته من العبر ، وتَعْمَلُوا بموجبها، أو لعلكم تُعْمِلُونَ أفكاركم فيما يفنى ويَضْمَحِل من الدُّنيا، وفيما هو باق لكم في الأخرى ، فتزهدون في الدُّنيا ، وتنفقون مما أتاكم الله ــ تعالى ــ منها ، وترغبون في الآخرة ، ولا تفعلون ما يُحْزنكم فيها»(٢).

وقال ابن عاشور ــ رحمه الله ــ : «وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ تذييل، أي : كهذا البيان الذي فيه تقريب المعقول بالمحسوس بـَـيـّـَن اللهُ ؛ نصحاً لكم، رجاءَ تفكّركم في العواقب حتى لا تكونوا على غفلة»(٣).

وختاماً قال الشّيخ المراغي ــ رحمه الله ــ : «﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، أي : مثل هذا البيان بضرب الأمثال التي بلغت الغاية في الوضوح، يـُـبـَـيـّـِنُ الله لكم دلائل شريعته،

---

(١)مفاتيح الغيب (٧/٥٢،٥١) .
(٢)روح المعاني (٢/٣٨) .
(٣)التحرير والتنوير (٣/٥٥) .

وأسرارها، وفوائدها، وغاياتها، لتتفكروا فيها، وتعتبروا بما اشتملت عليه من العبر، فتضعوا نفقاتكم فى مواضعها، وتقصدوا بها أن تكون خالصة لوجهه ــ تعالى ــ بدون رياءٍ ، ولا أذى»[١].

ألا وإنَّ الحثَّ على التفكر مقصودٌ في ذاته ابتداءً ، وفيما يؤول إليه حال من امتثله، «فالإنسان مأمور بالتفكّر في الآيات الكونية، والشَّرعية؛ لأن التفكّر يؤدي إلى نتائج طيبة؛ لكن هذا فيما يمكن الوصول إليه بالتفكّر فيه؛ أما ما لا يمكن الوصول إليه بالتفكر فيه ، فإنَّ التفكر فيه ضياع وقت، وربما يوصل إلى محظور، مثل التفكّر في كيفية صفات الله ــ عز وجل ــ، فهذا لا يجوز؛ لأنك لن تصل إلى نتيجة»[٢].

قال الحَرَالي ــ رحمه الله ــ : «فَــتَــبَنــُونَ الأمور على تَــثَــبــّتٍ ، لا خير في عبادةٍ إلا بتفكّر، كما أنَّ الباني لا بدّ أن يُفكّر في بنائه ، كما قال الحكيم : أول الفِكْرةِ أخر العمل، وأوّل العمل آخر الفكرة، كذلك مِن حقِّ أعمال الدِّين أن لا تقع إلا بفِكْرَةٍ في إصلاح أوائلها السّابقة ، وأواخرها اللاحقة»[٣].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا ــ رحمه الله ــ : «وتدلّ على تعظيم شأن التفكّر، وكونه مبدأ العلم وطريق الحقّ، ولذلك حثَّ الله

---

(١)تفسير المراغي (٣/٣٧ــ٣٨) .

(٢)تفسير ابن عثيمين : الفاتحة والبقرة (٣/٣٣٢، ٣٣٦ــ٣٣٧).

(٣)نظم الدرر (٤/٨٨ــ٨٩) .

عليه في مواضع من كتابه ، وبيّن أنّ الآيات والدّلائل إنما تُساق إلى المتفكّرين ؛ لأنهم هم الذين يعقلونها ، وينتفعون بها ... فبقدر التفكر في آيات الله ــ تعالى ــ المنزلة على رسوله، وآياته في الأنفس والآفاق، وسننه وحكمه في البشر وسائر المخلوقات، يكون ارتقاء الناس في العلوم والأعمال، من دينية ودنيوية»(١).

أخيراً فإنّ المتفكِّرُ فيما ضَرَبَ الحقُّ له من أمثال في تلك الآية الكريمة ، وفي سياقها، المتدبر لِـمَا أظهر له ربه ــ تعالى ــ فيها من حقائق ، لا يعدو ما حوَته من خير إلى ضدِّه، ومن نفع إلى نقيضه بحال، هذا هو ثمرة التفكر، وذاك عائـِدُهُ لذوي العقول والألباب .

قال الشَّيخ ابن سعدي ــ رحمه الله ــ : «فلو علِم الإنسانُ ، وتَصَوَّر هذه الحال ، وكان له أدنى مسْكَة من عقل ، لم يـُقْدِم على ما فيه مَضَرّته ونهاية حسرته ، ولكن ضَعْفُ الإيمانُ ، والعقل ، وقلّة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة ، التي لو صَدَرَتْ من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيماً ، وخطره جسيماً، فلهذا أمر ــ تعالى ــ بالتفكُّر ،وحثَّ عليه،فقال:﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾»(٢).

* * * * *

(١)تفسير المنار (٩/٣٤٢ــ٣٤٣) .

(٢)تيسير الكريم الرحمن (١١٤) .

المطلب الثاني : تناسب الآيات المختومة بـ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وردت ثلاثُ آياتٍ كريماتٍ مُذيــّلاتٍ بالختم الآنف ، وهي :

١. قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف] .

٢. وقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل] .

٣. وقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر] .

وبالنظر ملياً في الآية الأولى والثالثة من تلك الآيات المختومة بمادة التفكّر، يظهر أنَّ أبرز مظهر للتناسب فيها ما أُودِعَ بين طياتها من دواعي التفكُّر،وأسبابه،وبيان ذلك الآتي:

أولاً: بخصوص آية الأعراف : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ فإنَّ قَصَّ القَصَص ، وما حَواه مِن ضرب المثل هو سبيل حصول التفكّر،

إذ ختامها : ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾. و"لَعَلَّ" ها هنا للترجِّي([1])، أو للتعليل([2]).

قال أبو السّعود ــ رحمه لله ــ : «والجملة في محل النصب على أنها حالٌ من ضمير المخاطَب،أو على أنها مفعولٌ له،أي:فاقصُص القصص راجياً لتفكُّرهم،أو رجاءً لتفكُّرهم»([3]).

وقال أبو الليث السَّمرقندي ــ رحمه الله ــ: «﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾، أي : اقرأ عليهم القرآن ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، أي : لكي يتعظوا بأمثال القرآن، ويؤمنوا به»([4]).

والحقُّ أنَّ هذه الآية الكريمة امتدادٌ للتي قبلها ــ أعني قول الله : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الأعراف] ــ مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ ــ ﷻ ــ لكلِّ مَن عُرِض عليه الهُدَى فلم يقبله ، ولم يرفع به رأساً([5]). « وهذا المثل في قــولْ

---

(١) انظر: لعل في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٤٨). وروح المعاني (١٠٨/٥)، والتحرير والتنوير (١٧٩/٩).

(٢) انظر : جامع البيان (٢٧٤/١٣) ، تحقيق: شاكر .

(٣) إرشاد العقل السليم (٢٩٤/٣) . وانظر : نظم الدرر (١٦١/٨)، وتفسير المنار (٣٤٢/٩) .

(٤) بحر العلوم (٥٦٨/١) . وانظر : الهداية إلى بلوغ النهاية (٢٦٤٥/٤) .

(٥) هذا هو قول قتادة . انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٢٦٤٤/٤) .

كثير من أهل العلم بالتأويل عـــامٌّ في كلِّ مَن أوتيَ القرآن فلم يعمل به»(١). كما أنَّ

هذه الآية الكريمة دالّةٌ «على تعظيم شأن ضرب الأمثال في تأثير الكلام، وكونه أقوى من سَوق الدّلائل والحجج الـــمُجَرَّدَة»(٢).

قال ابن عاشور ــ رحمه الله ــ : «لأنَّ للأمثال ، واستحضار النظائر شأناً عظيماً في اهتداء النفوس بها ، وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذَّاهلة أو المتغافلة ؛ لِـــمَا في التنظير بالقصة المخصوصة من تَذَكُّر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس»(٣).

وإنَّ هذا المثل البعيد الشأن في الغرابة مَثَلٌ ضربه الله ــ تعالى ــ للمكذِّبين بآيات الله المنزلة على رسوله محمد ــ ﷺ ــ ، وهو مَثَلُ مَن آتاه الله آياته فكان عالماً بها ، حافظاً لقواعدها وأحكامها ، قادراً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٢٣/٧) . وقد ذكر المفسّرون أقوالاً عديدة في المراد بهذا الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها ، فقيل: هو بلعام بن باعوراء ، وقيل: أمية بن أبي الصلت ، وقيل: أبو عامر الفاسق، وقيل: منافقو أهل الكتاب . والأظهر ــ والله أعلم ــ أنه ما أراد به شخصاً بعينه ، وإنما هو ــ كما ذكر أعلاه ــ عامٌّ في كلِّ من عُرض عليه الهُدَى فلم يقبله، وفي كلّ مكذّب بآيات الله جاحدٍ لها. انظر : معاني القرآن وإعرابه (٣٩١/٢)، وبحر العلوم (٥٦٧/١)، ولباب التأويل (٢٧٣/٢) ، وروح المعاني (١٠٨/٥) .

(٢) تفسير المنار (٣٤٢/٩) .

(٣) التحرير والتنوير (١٧٩/٩) .

على بيانها والجدل بها، ولكنه لم يُؤتَ العمل مع العلم، بل كان عمَلُهُ مخالفاً تمام المخالفة لعِلْمِه ، فَسُلِبَ هذه الآيات؛ لأنَّ العلم الذي لا يُعْمَل به لا يلبث أن يزول، فأشبه الحَيَّة التي تنسلخ من جلدها ، فتخرج منه تاركةً إيّاه على الأرض، أو كان في التباين بين علْمه وعَمَله كالمنسلخ من العلم التارك له، كالثوب الخَلِق يلقيه صاحبُهُ، والثعبان يتجرَّدُ من جلده حتى لا تبقى له به صلة . ذلك المثل البعيد الشَّأن في الغرابة ﴿ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ ﴾ من الجاحدين المستكبرين المنسلخين عن الهُدى بعد أن كان في حوزتهم، والمُقَلِّدين الجاهلين، الذين كذَّبوا ؛ لظنهم أنَّ الإيمان بتلك الآيات يَسْلُبهم ما يفخرون به من العزَّة والعَظَمة باتباعهم لغيرهم، ويَحُطُّ من قدر آبائهم وأجدادهم الذين قلَّدوهم في ضلالهم، ويحول دون تمتعهم بما يشتهون من لذَّاتهم، فلهذا الظنّ الباطل لم ينظروا في الآيات نظر تفكُّر واستقلال،وتبصُّر واستدلال،بل نظروا إليها ــ لا فيها ــ من جهةٍ واحدة، وهي أنَّ اتباعَها يَحُطُّ مِن أقدارهم، ويُعَدُّ اعترافاً بضلال سَلَفِهم الذين يفخرون بهم، ويحرمهم التمتع بحظوظهم وأهوائهم.

فعمَّ بهذا التمثيل ــ الذي هو من مبتكرات القرآن ــ جميع المكذِّبين بآيات الله[1]. وسواءٌ كان أولئك الجاحدون المستكبرون هم اليهود حيث أوُتوا في التوراة ما أوُتوا من نعوت النبيِّ ــ ﷺ ــ ، وذِكْر القرآن المعجزة وما فيه ، فصَدَّقُوه وبَشَّرُوا الناسَ باقتراب مبعثه ، وكانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عَرفوا كفروا به، وانسَلَخُوا من حُكْم التوراة[2]. أو كان أولئك الجاحدونَ المستكبرون هم أهل مكة وكفار قريش، فقد كانوا يتمنون هادياً يهديهم، وداعياً يدعوهم إلى طاعة الله ــ ﷻ ــ، ومعرفة دين إبراهيم ــ عليه السلام ــ، ويتطلَّعُون إلى مساواة أهل الكتاب في العلم والفضل، فكــانوا في عناءٍ وحيــرةٍ في الجاهــلية، فلما جاءهم رســولٌ منهم،

لا يشكّون في صِدْقِهِ وديانته، بكتاب قيّــم مبين انتقلوا إلى عناءِ معاندته، فكَذَّبــُوهُ[3].

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب (٤٠٦/١٥) ، وتفسير المنار (٣٤٢/٩) ، وتفسير المراغي (١٠٩/٩)، والتحرير والتنوير (١٧٧/٩)، والتفسير الوسيط لطنطاوي(٤٣٥/٥ــ٤٣٦).

(٢) انظر : جامع البيان (٢٧٤/١٣) تحقيق : شاكر ، والكشاف (١٧٩/٢) ، وإرشاد العقل السليم (٢٩٤/٣).

(٣) ذُكِرَ هذا القول عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ، وعبادة بن الصّامت ــ رضي الله عنه ــ.

انظر : مفاتيح الغيب (٤٠٦/١٥)، ولباب التأويل (٢٧٣/٢)، والتحرير والتنوير (١٧٩/٩) .

والمتدبّر مهما بلغ في الفصاحة والبيان لا يَسَعُهُ بحال أبداً أن يختصر لك الصّورة مع الشُّمول للمعاني لتلك الحالة العجيبة من لدن المشبّه والمشبّه به ، والـــمَثَل والممثل به كقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ «وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد إلا هذا القرآن العجيب الفريد! ، فهو يُمَثِّلُ حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ، ثمَّ لا يستقيموا عليها ، وما أكثر ما يتكرَّر هذا النبأ في حياة البشر !، ما أكثر الذين يُعْطَون علم دين الله(١)، ثم لا يهتدون به ، ولوْ شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته، ولكنه ــ سبحانه ــ لم يشأ؛ لأنَّ ذلك الذي عَلِمَ الآيات أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه، ولم يتبع الآيات .

وإذ تقرَّر ما سبق فلا ريب أن تأتيَ نهاية ضرب ذلكم المثل كما قال الله: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وهل لبليغ أن يجد نهايةً كهذه النهاية ، أو تذييلاً مُحْكَماً كهذا التذييل ، فبعد أنَّ قعَّدَ للمكذّبين ذاك الـــمَثَلَ المذموم ، نادى بالنبيِّ ــﷺــ أن يقصص علي قومه، أو على اليهود، أو على كلّ مكذّبٍ جاحدٍ أخبار مَن كفروا بآيات الله ، ﴿ لَعَلَّهُمْ

(١)لطيفة : ذكر البقاعي في نظم الدرر (١٦١/٨) قال : «مَن كانت نعم الله في حقّه أكثر ، كان بُعْدُه عن الله إذا أعرض عنه أعظم وأكبر» .

يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيتعِظُون وينزَجِرُون عما هم عليه من الكفر والضّلال[١].

«أي: اقصص هذه القِصَّة وغيرها ، وهذا تذييل للقصّة المُمَثَّل بها ، يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن؛ فإنَّ في القصص تفكّراً وموعظةً، فيُرْجَى منه تفكّرهم وموعظتهم»[٢].

وذاك المثل المُسَاقُ «مَثَلٌ لا ينقطع ورُودُه ووجُودُه ، وما هو بمحصور في قصةٍ وَقَعَت، في جيل مِن الزَّمان!، وقد أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزَّلُ عليهم آياتُ الله؛ كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها. ثم ليبقى مِن بعدِه ومِن بعدِهم يُتْلَى؛ ليحذر الذين يعلمون مِن عِلْم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة ، وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً ، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظُّلم الذي لا يظلمه عدوٌ لعدوٍ، فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النَّكِدَة!»[٣].

قال الطبري ــ رحمه الله ــ : «وأما قوله : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ فإنه يقول لنبيه محمد ﷺ : فاقصص يا محمد هذا القصص، الذي اقتصصته عليك ــ من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السُّورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلَنا من

---

(١) انظر : لباب التأويل (٢/٢٧٣) ، وروح المعاني (٥/١٠٨) .

(٢) التحرير والتنوير (٩/١٧٩) .

(٣) في ظلال القرآن (٣/١٣٩٨) .

نقمتنا ــ على قومك من قريش، ومَنْ قبلَك من يهود بني إسرائيل؛ ليتفكَّرُوا في ذلك، فيعتبروا ويُنِيبُوا إلى طاعتنا ؛ لئلا يحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من النّقم والمَثُلات، ويتدبَّره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقةَ أمرك ، وصحَّة نبوّتك ؛ إذ كان نبأ الذي آتيناه آياتنا من خَفِيِّ علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أحبارُهم، ومَن قرأ الكُتب ودَرَسَها منهم . وفي عِلْمِكَ بذلك ــ وأنت أميٌّ لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم ــ الحُجَّة البينة لك عليهم بأنك لله رسولٌ، وأنك لم تَعْلَم ما عَلِمْتَ من ذلك ــ وحالُك الحال التي أنت بها ــ، إلا بوحي من السَّماء»(١).

ثانياً : بخصوص آية الحشر ــ أعني قول الله ــ : ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾ .

فإنَّ ضربَ الأمثال سبيلٌ لحصول التفكّر ، إذ ختامها : ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . والأكثر على أنَّ "لَعَلَّ" فيها

---

(١)جامع البيان (٢٧٤/١٣) تحقيق : شاكر .
وانظر : الهداية إلى بلوغ النهاية (٢٦٤٥/٤)، والكشّاف (١٧٩/٢)، والمحرر الوجيز (٤٧٨/٢)، ونظم الدُّرر (١٦١/٨)، وتفسير المراغي (١٠٩/٩ــ١١٠)، وتيسير الكريم الرَّحمن (٣٠٨) .

للتعليل[١]، وأنَّ معنى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، أي: «فيما يجب عليهم التفكّر فيه؛ ليتعظوا بالمواعظ، وينزجروا بالزَّواجر»[٢].

وذهب البِقَاعي إلى أنها للترجِّي ، والمعنى عنده : «أي : لتكون حالهم عند مَن ينظرُهُم حال مَن يُرْجَى تفكّره في تلك الأمثال، فينفعه ذلك إذا أراد التفكُّر إلى التذكر»[٣].

وضَرْبُ المثال في نهايةِ سورة الحشر آتٍ في مكانه اللائق به،وله تأثيره المُتَخَلِّل

لشِغاف القلوب ، سيما بعد «ما بيَّن اللهُ ــ تعالى ــ لعباده ما بيَّن، ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يُبادروا إلى ما دعاهم إليه، وحثّهم عليه»[٤]. وما انبنى على ذلك من تقسيم النَّاس إلى

---

(١)انظر : جامع البيان (٣٠١/٢٣) تحقيق: شاكر ، وبحر العلوم (٤٣٢/٣) ، والمحرر الوجيز (٢٩١/٥) ، وتيسير الكريم الرحمن (٨٥٣ــ٨٥٤) ، والتحرير والتنوير (١١٧/٢٨) ، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣١٠/١٤) ، و"لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٦١) .

(٢)فتح القدير ، للشُّوكاني(٢٤٦/٥) .

(٣)نظم الدّرر (٤٦٣/١٩) .

(٤)تيسير الكريم الرَّحمن (٨٥٣) .

يُستفاد هذا التقرير من قوله ــ تعالى ــ قبلُ في سورة الحشر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ =

فريقين اثنين لا ثالث لهما(1): أصحابِ نار، وأصحابِ جنةٍ، وأنَّ أصحاب الجنّة هم الفائزون حقّاً، وهذا التقسيمُ الحتمي في الدّار العُـقْـبَى لم يأتِ مِن لا شَيءٍ، كلا !، إنما تـَـرتَّبَ على افتراق أولئك في شأن هذا القرآن المجيد في دارهم الدُّنيا ، وشتّان بين مَن يقفو أوامر القرآن طاعةً ، ويتجافى عن محارمه خشيةً ، وآخر لا يعبأ بهما بحال . ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السَّجدة] .

ومن ثَمَّ يأتي التعريضُ بمن نَسِيَ الله ــ تعالى ــ ، ونَسِيَ أمره ونهيه ، فقال : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾. «والمعنى: لو كان المخاطب بالقرآن جبلاً، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثـّـُراً ناشئاً من خشيةٍ لله، خشية تـُـؤَثـّـِرُها فيه معاني القرآن . والمعنى: لو كان الجبل في موضع هؤلاء الذين نسوا الله، وأعرضوا عن فَهْم القرآن ، ولم يتعظُوا بمواعظه ، لاتعظ الجبلُ ، وتصدَّع صخرُه وتـُـرْبـُـهُ مِن شدة تأثـّـُره

= ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

(1)وذلك في قوله ــ تعالى ــ : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر] .

بخشية الله . وضرب التصدُّع مثلاً لشدة الانفعال والتأثُّر ؛ لأنَّ منتهى تأثُّر الأجسام الصَّلبة أن تنشق وتتصدَّع ؛ إذ لا يحصل ذلك لها بسهولة»(١). «وهي صورةٌ تمثِّلُ حقيقةً؛ فإنَّ لهذا القرآن لَثِقَلاً، وسلطاناً، وأثراً مُزَلْزِلاً، لا يثبت له شيءٌ يتلقّاه بحقيقته ... . واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتِّحاً لتلقِّي شيءٍ من حقيقةِ القرآن ، يهتزُّ فيها اهتزازاً ، ويرتجف ارتجافاً، ويقع فيه من التغيُّرات والتحوُّلات ما يُمثِّلُهُ في عالم المادة فعلُ المغنطيس، والكهرباء بالأجسام، أو أشدّ!. والله خالق الجبال، ومنزل القرآن ... ، والذين أحسُّوا شيئاً من مسِّ القرآن في كيانهم ، يتذوَّقون هذه الحقيقة تذوُّقاً لا يُعبِّر عنه إلا هذا النصُ القرآنيُّ المُشِعُّ المُوحِي»(٢).

وفي الآية توبيخٌ لهذا الإنسان على قسوة قلبه مع كتاب ربّه العظيم، وعدم تخشُّعه عند تلاوته، وقلّة تدبُّر ما فيه من القوارع والزَّواجر، في حين أنَّ المفروض منه معه خلاف ذلك؛ «لكمال تأثيره في القلوب؛ فإنَّ مواعظَ القرآن أعظمُ المواعظ على الإطلاق، وأوامرَه ونواهيه محتويةٌ على الحِكَم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيءٍ على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خاليةٌ من التكلُّف، لا تناقضَ فيها، ولا اختلافَ، ولا صعوبةَ فيها، ولا اعتساف،

---

(١) التحرير والتنوير (١١٦/٢٨) .

(٢) في ظلال القرآن (٣٥٣٢/٦) .

تصلُحُ لكلِّ زمان ومكان، وتليق لكلِّ أحدٍ»([1]). وفي نفس الوقت فالآية «حثٌّ على تأمّل مواعظ القرآن، وبيان أنه لا عذر في ترك التدبّر»([2]).

قال مكي القيسي ــ رحمه الله ــ : «أي : لو أَنزَلَ اللهُ ــ ﷻ ــ هذا القرآن على جبل، وهو حجرٌ أصمٌّ ، لرأيته يا محمد على قساوته وشِدَّته متذلِّلاً متضرِّعاً ؛ حَذَراً مِن ألا يُؤَدِّي حقَّ الله ــ ﷻ ــ المفترض عليه، وقد أُنزلَ على ابن آدم ، ومَعه فَهمٌ وإدراكٌ ، وهو مستخفٌّ بحقه، لاه عمَّا فيه ! . قال قتادة : فعذَرَ اللهُ ــ ﷻ ــ الجبل الأصمَّ ، ولم يعذُر أشقياءَ بني آدم، فهل رأيتم أحداً تصدَّعت جوارحُهُ من خشية الله ــ سبحانه ــ ؟! . وقيل : المعنى : ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ ﴾ على عظمته وشدَّته ، وجعلنا فيه ما يُميِّزُ ، لذَلَّ وخَضَع»([3]).

وإذا تقرّر ما سبق يأتي الختام بقوله : ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ؛ ليقطعَ على كلِّ مُتَهوِّكٍ ، ويُزْرِي بكلِّ معاندٍ جاحد . والإشارة بـ(تلك) إلى هذا المثل هاهنا ، وإلى مَثَل قَبْلَه في

(١) تيسر الكريم الرّحمن (٨٥٣ــ٨٥٤) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٤٥) .
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (١١/٧٤٠٨) .
وانظر : جامع البيان (٢٣/٣٠١) تحقيق : شاكر، والنكت والعيون (٥/٥١٢)، وزاد المسير (٤/٢٦٤) ، ومفاتيح الغيب (١٨/٤٥) .

نفس السّورة(١)، ولا يَبْعُدُ أن تتسع الدائرة حتى تمتدَّ إلى مجموع ما مرَّ على أسماعهم من الأمثال الكثيرة والمتنوعة ، أمثالٌ جديرةٌ بأن توقظ القلوب للتأمّل والتفكّر، البعض منها لها صلةٌ ظاهرةٌ بهذا المثل المُسَاق اقتضاها الحال، من مثل «قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة:٧٤]،وقوله:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ ﴾ [البقرة:٧٤]، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ ﴾ ... الآية [الرَّعد:٣١] ، جعلناها تبصرة وذكري لمن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد ، فمن الناس مَن وفَّقه الله ، واهتدى بها إلى سواء السَّبيل، وفاز بما يُرْضِى ربَّه عنه، ومنهم مَن أعرض عنها ونأى، فأخذه الله نكالَ الآخرة والأولى، وأدخلَه فى سَقَرَ، وما أدراك ما سَقَرُ، لا تبقى ولا تذر»(٢).

---

(١)وذلك في قوله ــ تعالى ــ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحشر] .

(٢)تفسير المراغي (٥٧/٢٨) .

قال الشيخ ابن سعدي ــ رحمه الله ــ : «ثم أخبر ــ تعالى ــ أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضّح لعباده في كتابه الحلال والحرام ؛ لأجل أن يتفكَّروا في آياته ويتدبروها، فإنَّ التفكّر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبيـّن له طرق الخير والشّرّ، ويحثّه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكّر في القرآن، والتدبر لمعانيه»(١). وفي التفسير الوسيط: «أى: وتلك الأمثال الباهرة التي اشتمل عليها هذا القرآن العظيم، نضربها ونسوقها للناس، لكي يتفكروا فيها، ويعملوا بما تقتضيه من توجيهات حكيمة ، ومن مواعظ سديدة، ومن إرشادات نافعة»(٢).

ثالثاً : أمَّا آية النَّحل ــ أعني قول الله ــ : ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ فـ"لَعَلَّ" فيها أيضاً للترجِّي(٣)، أو للتعليل(٤). والذي ينبغي استصحابهُ هنا أنَّ سياق هذه الآية الكريمة مع التي قبلها يلقي الضّوء جليـّاً على سرِّ الإتيان بقوله : ﴿ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في الختام . ذاك أنَّه قد سبق قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (٨٥٣ــ٨٥٤) .

(٢) التفسير الوسيط للدكتور: محمد سيد طنطاوي (٣١٠/١٤) .

(٣) انظر: الكشّاف (٦٠٨/٢) .

(٤) انظر : جامع البيان (٢١١/١٧) تحقيق: شاكر، و"لعَلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٥٩) .

كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل] . فمن نواميس الحقّ الرَّاسخة ــ جل جلاله ــ أنه لا يَبْعَثُ الرُّسل ــ عليهم السَّلام ــ إلا رجالاً يُوحِى إليهم مِن لدُنه بما يشاء ، تفرَّع عن هذا أنَّ مِن مهامِّ النبيِّ ــ ﷺ ــ ومِن حِكَم إرساله ــ وقد أُنزلَ إليه الذّكر المجيد ــ،حكمتين اثنتين :«أما الحكمة الأولى: فهي تفسير ما اشتمل عليه هذا القرآن من آياتٍ خفىَ معناها على أتباعه، بأن يوضِّح لهم ــ ﷺ ــ ما أجمله القرآن الكريم من أحكام أو يؤكِّد لهم ــ ﷺ ــ هذه الأحكام. ففي الحديث الشَّريف عن المقدام بن مَعْدِ يكَرب، عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال : «ألا وإنى أُوتيتُ الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحِلُّوه ، وما وجدتم فيه من حَرام فحرِّموه ... »(١). وأمَّا الحكمة الثانية :فهي التفكُّر في آياتِ هذا

(١)أخرجه أبو داود في سننه (٢٠٠/٤) ح(٤٦٠٤)، والمروزي في "السنة" (٧٠) ح(٢٤٤)، و(١١١) ح(٤٠٣)، وابن حبان في صحيحه (١٨٩/١) ح(١٢) ، والآجري في "الشريعة" (٤١٥/١) ح(٩٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٨٣/٢٠) ح(٦٦٩، ٦٧٠)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٥٥٦/٩) ح(١٩٤٦٩).

والحديث صحّحه الشيخ الألباني كما في "مشكاة المصابيح" (٥٧/١) ح(١٦٣) ، و"سلسلة الأحاديث الصَّحيحة" (٨٧١/٦) ح(٢٨٧٠) .

القرآن، والاتعاظ بها، والعمل بمقتضاها، قال ــ تعالى ــ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص]»(١).

قال الشيخ ابن سعدي ــ رحمه الله ــ : «يقول ــ تعالى ــ لنبيه محمد ــ ﷺ ــ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً ﴾ ، أي : لست ببدع من الرُّسل، فلم نرسل قبلك ملائكة بل رجالاً كاملين لا نساءً . ﴿ نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ﴾ من الشَّرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد من غير أن يأتوا بشيء من قِبَل أنفسهم،﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ ، أي : الكتب السَّابقة ، ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ نبأ الأولين، وشككتم هل بعث الله رجالاً؟، فاسألوا أهل العلم بذلك ، الذين نزلت عليهم الزّبر والبينات ، فَعَلِمُوها وفَهِمُوها، فإنهم كلّهم قد تقرّر عندهم أنَّ الله ما بعث إلا رجالاً يوحي إليهم من أهل القرى»(٢).

وجملة : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ معترضةٌ بين جملة : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا ﴾، وجملة : ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾. وفي قوله: ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إيماءٌ إلى أنهم يعلمون ذلك، ولكنهم قصدوا المكابرة والتمويه ؛ لتضليل الدَّهماء، فلذلك جِيءَ في الشَّرط بحرف "إن" التي تَـرِدُ في الشَّرط المظنون عدم وجوده . وأقبل عليهم بالخطاب ؛ توبيخاً لهم ؛ لأنَّ التوبيخ يناسبه الخطاب؛ لكونه أوقع في

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٨/١٥٨ــ١٥٩) . وانظر : تفسير المراغي (١٤/٨٩) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٤١) . وانظر : لباب التأويل (٣/٧٩) .

نفس المُوَبَّخ، فاحتج عليهم بقوله : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ... إلخ ﴾ . وهذا احتجاجٌ بأهل الأديان السَّابقين أهل الكتب اليهود، والنصارى، والصَّابئة(١). «وعموم هذه الآية فيها مدحُ أهل العلم، وأنَّ أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المُنَزَّل، فإنَّ الله أمر مَن لا يعلم بالرُّجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضِمْنه تعديلٌ لأهل العلم، وتزكيةٌ لهم؛ حيث أمر بسؤالهم، وأنَّ بذلك يخرج الجاهل مِن التَّبِعَة، فدلّ على أنَّ الله ائتمنهم على وَحْيِهِ وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال . وأفضل أهل الذِّكر أهل هذا القرآن العظيم؛ فإنهم أهل الذِّكر على الحقيقة، وأولى مِن غيرهم بهذا الاسم»(٢). ولَمَّا اتضحت الحُجّة بشواهد التاريخ الذي لا يُنكَر ذُكِرت النتيجة المقصودة، وهو أنَّ ما أنزل على محمد ﷺ إنما هو ذِكْرٌ ، وليس أساطير الأولين، فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾، «أي : القرآن الذي فيه ذِكْر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظَّاهرة والباطنة ، ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾، وهذا شاملٌ لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه»(٣). ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، والمعنى : «وانتظاراً لتفكّرهم في هاتيك الأسرار والعِبَر، وإبعاداً لهم عن سلوك سبيل الغابرين من المكذّبين حتى لا

---

(١) انظر : التحرير والتنوير (١٦١/١٤) .
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٤١) .
(٣) تيسير الكريم الرَّحمن (٤٤١) .

يصيبهم مثل ما أصابهم»(١). أو «﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم ، وإقبالهم عليه»(٢).

وهذا الموطن خصوصاً من مواطن ذكْر "لَعَلَّ" الـمُتَنَاوَلَة بالدِّراسة أتى فيه الختم بها وبمعموليها معطوفاً على ما قبله ، مختلفاً عن المواطن السّابقة واللاحقة منها المجرّدة من ذلك ، وعسى أن يكون لذلك مَغْزَى ولا ريب .

قال البقاعي ــ رحمه الله ــ : «ولـمَّا كان التقدير: لعلهم بحسن بيانك يعملون!، عَطَفَ عليه ؛ بياناً لشرف العلم قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إذا نظروا أساليبه الفائقة، ومعانيه العالية الرَّائقة، فيصلوا بالفِكْر فيه ــ بسبب ما فتحت لهم من أبواب البيان ــ إلى حالات الملائكة، بأن تغلب أرواحُهُم على أشباحهم ، فيعلموا أنه ــ تعالى ــ واحدٌ قادرٌ فاعلٌ بالاختيار، وأنه يقيمُ الناسَ للجزاء، فيطيعونه رغبةً ورهبةً، فيجمعون بين شَرَفَي الطَّاعة الدَّاعية إليها الأرواح، والانكفاف عن المعصية الدَّاعية إليها النفوسُ بواسطة الأشباح»(٣).

* * * * *

(١)تفسير المراغي (١٤/٨٩) .
(٢)تيسير الكريم الرَّحمن (٤٤١) .
(٣)نظم الدُّرر (١١/١٦٨ــ١٦٩) .

المبحث الثالث: تناسب الآيات المختومة بـ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وردت إحدى عشرة آيةً كريمة مذيلة بالختم الآنف ، وهي كالآتي:

٣. قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة] .

٤. وقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

٥. وقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

٦. وقــول الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المائدة] .

٧. وقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] .

٨. وقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة] .

٩. وقول الله ــ تعالى ــ: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف] .

١٠. وقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال] .

١١. وقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج] .

١٢. وقــول الله ــ تعالى ــ : ﴿ ... وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] .

١٣. وقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة] .

وقبل تلمُّس أسرار التناسب فيها كلّها ، يحسن تعريف معنى الفَلاح بشكل موجز ؛ ليتسنّى إدراك التناسب في الآيات السَّابقات بصورة أظهر .

فالفلاح مادته "فَلَح"، والفَلْح والفَلاح : الفوز بما يُغتبط به ، وفيه صلاحُ الحال، والنَجاة، والبَقاء في النّعيم والخير(١).

---

(١) انظر : تهذيب اللُّغة (٤٦/٥) ، مادة "فلح" ، والصِّحاح (٣٩٢/١) مادة "فلح"، وتاج العروس (٢٥/٧) ، مادة "فلح".

قال ابن فارس ــ رحمه الله ــ : «الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان : أحدهما يدل على شَقٍّ، والآخر على فوز وبقاء . فالأول: فلحت الأرض : شققتها. والعرب تقول : الحديد بالحديد يفلح . ولذلك سُمِّيَ الأَكَّار فلاحاً. ويقال للمشقوق الشّفة السّفلى: أفلح، وهو بيّن الفَلْحَة. وكان عَنترة العَبسي يلقَّب : "الفَلْحَاء "؛ لفلحة كانت به ... .

والأصل الثاني الفَلاح: البقاء والفوز. وقول الرَّجل لامرأته : استفلحي بأمرك، معناه : فوزي بأمرك. والفَلاح: السّحور. قالوا : سمِّيَ فَلاحاً ؛ لأنَّ الإنسان تبقى معه قوته على الصَّوم ...»(١).

وعند الرَّاغب أنَّ «الفَلَاح: الظَّفَر وإدراك بغية، وذلك ضربان: دنيويّ وأخرويّ، فالدُّنيويُّ : الظّفر بالسَّعَادَات التي تطيب بها حياة الدُّنيا، وهو البقاء، والغنى، والعزّ ... .

وفَلَاح أُخرويّ ، وذلك أربعة أشياء : بقاءٌ بلا فناءٍ، وغنى بلا فقر، وعزٌّ بلا ذلٍّ، وعلمٌ بلا جهل»(٢).

وحقيقة الفلاح :الظّفر والفوز بنيل الــمُنية، ودَرْك البُغية، والوصول إلى النّجاح في الطّلبة(٣). وقيل هو : أن يبلغ الإنسان نهاية

---

(١)معجم مقاييس اللغة (٤/٤٥٠) مادة "فلح".

(٢)المفردات (٦٤٤) مادة "فلح" . وللتوسُّع يُنظر : بصائر ذوي التمييز (٢/١٨٠ــ١٨٢)، والكليّات (١/٦٩٧) ، وتاج العروس (٧/٢٥ــ٢٨) ، مادة "فلح".

(٣)انظر : روح المعاني (٢/٣٨٥) .

ما يؤمّل[1]. وقيل هو : اسم جامع للخلاص من كلِّ مكروه ، والفوز بكلِّ محبوب[2].

وبالنظر ملياً في تلك الآيات الكريمات المختومات بمادة الفَلاح ، يظهر أنَّ أبرز مظهر للتناسب فيها ما أُودِعَ بين طياتها من دواعي الفلاح، وأسبابه . وبيانُ ذلك كالآتي :

أولاً: بخصوص آية البقرة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ فإنَّ تحقيق التقوى هو داع لحصول الفَلاح ، وسببه الرئيس ، حيث ختمت الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ . و"لَعَلَّ" فيها دائرةٌ بين التعليل والترجِّي[3].

قال النَّسفي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لتفوزوا بالنَّعيم السَّرْمَدِي»[4].

---

(١) انظر : بحر العلوم (٢٧٧/١) .

(٢) انظر : مفاتيح الغيب (٣٥٠/١١)، والبحر المحيط (٢٤٢/٤)، ولباب التأويل (٤٠/٢) .

(٣) انظر: لعل في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٦٥).

(٤) مدارك التنزيل (١٦٥/١). وانظر : جامع البيان (٥٦١/٣) تحقيق: شاكر، وإرشاد العقل السليم (٢٠٣/١) .

وقال الألوسي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ أي : لكي تفوزوا بالمطلوب من الهُدَى والبر »(١).

قال ابن عطية ــ رحمه الله ــ : «و﴿ لَعَلَّكُمۡ ﴾ تَرَجٍّ في حقِّ البشر ، والفَلاح دَرْكُ البغية»(٢). وعند أبي حيّان أنّ "لعلّ" متعلّقة بـ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، فعلّق التقوى برجاء الفلاح، وهو الظّفر بالبغية(٣).

وبين ثنايا هذه الآية الكريمة أحداثٌ مُلْفِتةٌ ، وتساؤلات عن تلك الأحداث ، وتصوّرات سابقة ، تلتها توجيهات سديدة، وتصحيحات مفيدة ، جَعَلَتِ الأمر بالتقوى يأخذ دوره الرّائد في بناءِ كيان المجتمع المسلم المخاطب بهذه الآية أوّل وَهْلَة ، فقد أتى في التفسير أنَّ النبيَّ ــ ﷺ ــ «سألوه عن وجه الحكمة في زيادةِ الأهِلَّة ونقصانها، فأخبرهم أنها مقادير لِـمَا يحتاج الناسُ إليه في صومهم، وحجِّهم، وغير ذلك»(٤).

قال الفخر الرَّازي ــ رحمه الله ــ : «كأنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهِلَّة فقيل لهم : اتركوا السُّؤال عن هذا الأمر الذي

---

(١)روح المعاني (٤٧٠/١) . وانظر : مفاتيح الغيب (٢٨٧/٥) .
(٢)المحرر الوجيز (٢٦٢/١) .
(٣)انظر : البحر المحيط (٢٤٠/٢) . ونظم الدرر (١٠٣/٣) .
(٤)زاد المسير (١٥٣/١) .

لا يعنيكم، وارْجِعُوا إلى ما البحث عنه أهمّ لكم ، فإنكم تظنون أنَّ إتيان البيوتِ مِن ظهورها بــرٌّ !، وليس الأمر كذلك»(١).

وقال الشَّيخ ابن سعدي ــ رحمه الله ــ : «يقول ــ تعالى ــ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ جمع هلال ، ما فائدتها؟، وحكمتها؟، أو عن ذاتها . ﴿ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ ، أي : جعلها الله ــ تعالى ــ بلطفه ورحمته على هذا التدبير ، يبدو الهلالُ ضعيفاً في أوّل الشَّهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله، وهكذا ؛ ليعرف الناسُ بذلك : مواقيت عباداتهم من الصِّيام، وأوقات الزّكاة، والكفارات، وأوقات الحج . ولــمَّا كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتاً كثيرة ، قال : ﴿ وَٱلْحَجِّ ﴾، وكذلك تــُعْرَف بذلك : أوقات الدُّيون المؤجَّلات، ومدة الإجارات، ومدة العِدَدِ والــحَمْل، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق، فجعله ــ تعالى ــ حساباً، يعرفه كلُّ أحدٍ، مِن صغير، وكبير، وعالم، وجاهل، فلو كان الحساب بالسنة الشَّمسية، لم يعرفه إلا النادر من الناس»(٢).

والشَّيء بالشَّيء يُذكَر ، فثمّة مخالفاتٌ لها صلة ظاهرةٌ بالحجِّ أوقعها المشركون فيه ؛ نتيجةً عن بُعْدِهم عن ملة إبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ ، وكانوا يرونها من الدّين. «والارتباط بين شطري الآية يبدو أنه هو المناسبة بين أنَّ الأهلة هي مواقيتُ للناس والحج ، وبين

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨٦/٥) .

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (٨٨) .

عادة جاهليةٍ خاصةٍ بالحج هي التي يشير إليها شطر الآية الثاني. في الصَّحيحين ــ بإسناده ــ عن البراء ــ رضي الله عنه ــ قال : «كان الأنصار إذا حَجُّوا فجاءوا لم يدخلوا مِن قِـبَـل أبوابِ البيوت، فجاء رجل منهم فدخل من قِـبَـل بابه، فكأنه عُـيِّـرَ بذلك، فنزلت : ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾[1] ... .

وسواءٌ كانت هذه عادتهم في السَّفر بصفة عامة، أو في الحجِّ بصفة خاصة ، وهو الأظهر في السِّياق، فقد كانوا يعتقدون أنَّ هذا هو البر ــ أي: الخير أو الإيمان ــ ، فجاء القرآن ليُـبـطَل هذا التصوُّر الباطل، وهذا العمل المتكلَّف الذي لا يستند إلى أصل، ولا يـُؤَدِّي

إلى شيءٍ ، وجاء يُصَحِّح التصور الإيـماني للبــرِّ ، فالبرُّ هو التقوى، هو الشُّعور بالله ورقابتــه في السِّرِّ والعلن، وليس شَكْلية من الشَّكليات التي لا ترمز إلى شيءٍ من حقيقة الإيمان، ولا تعني أكثر من عادة جاهلية. كذلك أمرهم بأن يأتوا البيوت من أبوابها»[2].

---

(١)صحيح البخاري (٦٣٩/٢) ح(١٧٠٩)، و(١٦٤٠/٤) ح(٤٢٤٢) ، تحقيق: مصطفى البغا ، وصحيح مسلم (٢٣١٩/٤) ح(٣٠٢٦) ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢)في ظلال القرآن (١٨٤/١) .

والأمر بإتيان البيوت من أبوابها ، وإن كان يتسق مع المعاني التي أتت في سبب نزول الآية، فلا مانع كذلك أن «يستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كلِّ أمر من الأمور، أن يأتيه الإنسان من الطّريق السّهل القريب، الذي قد جعل له موصلاً فالآمر بالمعروف، والنـّاهي عن المنكر، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرِّفق والسِّياسة، التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمُتعلّم والمُعلِّم، ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله،يحصل به مقصودُهُ، وهكذا كلّ مَن حاول أمراً من الأمور ، وأتاه من أبوابه وثابر عليه، فلا بدَّ أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود»(١).

وإذاً فتركيز الآية الكريمة على لفت أسماع وأبصار المكلّفين إلى تحقيق التقوى هنا في مقابل ما اعتادوه من أمور الجاهلية مما سبق ذِكْرُهُ، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ له داعيه الأكيدُ ؛ من حيث كونه «دالاً على عظيم جَدْوَاهَا ذِكْراً وتصريحاً، ودلالة على التأكيد في تركهم تلك العادة لاقتضاء الحال ذلك ؛ لأنَّ مَن اعتاد شيئاً قَلَّ ما يتركه، وإن تَرَكَه طَرَقَهُ خاطرُهُ وقتاً ما»(٢). ومن ثَمَّ فلا بدّ من قناعةٍ مبرَّرةٍ تحدث لأولئك المعتادين على ذلك الفعل، فيتركوه رغبةً فيما عند الله ــ تعالى ــ، وحَذَراً من عقابه.

---

(١)تيسير الكريم الرَّحمن (٨٨) .
وانظر: الجامع لأحكام القرآن (٣٤٦/٢) .
(٢)نظم الدّرر (١٠٣/٣) بتصرف يسير .

قال الألوسي ــ رحمه الله ــ : «﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في تغيير أحكامه ــ كإتيان البيوت مِن أبوابها ــ والسُّؤال عما لا يعني، ومِن الحِكَم والمصالح المودعة في مصنوعاته ــ تعالى ــ بعد العلم بأنه أتقن كلّ شيء، أو في جميع أموركم . ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، أي : لكي تفوزوا بالمطلوب مِن الهُدَى والبــرّ، فإنَّ مَنِ اتَّقى الله ــ تعالى ــ تفجَّرت ينابيع الحكمة من قلبه، وانكشــفت له دقــائق الأسرار حسب تــقــواه»(١). «وبهذا رَبَطَ القلوبَ بحقيقــةٍ إيمانيةٍ

أصيلة ــ هي التقوى ــ ، وربط هذه الحقيقة برجاء الفلاح المطلق في الدُّنيا والآخرة، وأبطل العادة الجاهلية الفارغة من الرَّصيد الإيماني،ووجَّه المؤمنين إلى إدراك نعمةِ الله عليهم في الأهلة التي جعلها الله مواقيت للناس والحج. كلّ ذلك في آية واحدة قصيرة»(٢).

قال المراغي ــ رحمه الله ــ : «﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۖ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ بعد أن أعلمهم بخطئهم في إتيان البيوت من ظهورها، وظنّــهم أن ذلك من البــرّ، بين لهم البــرّ الحقيقى، وأنه تقوى الله بالتخلِّي عن المعاصي والرَّذائل، والتحلِّي بالفضائل ، واتّــباع الحق ، وعمل الخير، فأتوا البيوت من أبوابها، وليكن باطنكم عنواناً لظاهركم، واتقوا الله ؛ رجاء أن تفلحوا

---

(١)روح المعاني (١/٤٧٠) .

(٢)في ظلال القرآن (١/١٨٤) .

في أعمالكم ، وتصلوا إلى غاية آمالكم، فالمتقون مُلْهَمُون إلى طريق الرِّشاد، كما قال ــ تعالى ــ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ﴾ [الطلاق]»(١).

ثانياً : وأمَّا بخصوص آية آل عمران : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٣٠ ﴾ فإنَّ تحقيق التقوى أيضاً هو داع لحصول الفَلاح ، وسببٌ له رئيس ، حيث ختمت الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾. و"لَعَلَّ" فيها أيضاً دائرةٌ بين التعليل والترجِّي(٢).

قال الألوسي ــ رحمه الله ــ :«﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، أي : لكي تفلحوا، أو راجين الفلاح، فالجملة حينئذ في موضع الحال»(٣).

وذكر أبو حيّان ــ رحمه الله ــ أنَّ التقوى سببٌ لرجاء الفلاح، وهو الفوز(٤).

---

(١)تفسير المراغي (٨٧/٢) .

وانظر : نظم الدّرر (١٠٤/٣)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٤٠٦/١) .

(٢)انظر: "لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٦٧).

(٣)روح المعاني (٢٧٠/٢).

وانظر : جامع البيان (٢٠٥/٧) تحقيق: شاكر، وبحر العلوم (٢٤٦/١)، ولباب التأويل (٢٩٦/١) .

(٤)البحر المحيط (٣٤٠/٣).

وانظر : معاني القرآن وإعرابه (٤٦٨/١) .

وهذه الآية الكريمة تناولت جانباً مهمّاً من جوانب التعاملات المالية التي كانت شائعةً في العهد الجاهلي ، وامتدّتْ فترةً ليست باليسيرة بعد البعثة، حتى جاء الأمر الإلهي الصَّارم بالكفّ عنه جملةً وتفصيلاً ، ذاك هو "الرّبا".

وهذه الآية في دلالتها تمثّل إحدى المراحل الزّمنية التي مرَّ بها المجتمع المسلم الأوّل ، وهو يُهَادَى على جادّةِ الامتثال لأمر الله ــ تعالى ــ في هذا الشأن . «وفي ندائهم باسم "الإيمان" إشعارٌ بأنَّ مقتضى الإيمان وتصديقه ترك "الرّبا"»(١). و«كلّ ما في القرآن مِن قوله ــ تعالى ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدلُّ على أنَّ الإيمان هو السَّبب الدَّاعي والموجب لامتثال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي؛ لأنَّ الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح»(٢).

وهي تُعَدّ أولى الآيات نزولاً في تحريم "الرّبا"، وآيات البقرة نزلت بعد هذه، بل هي آخر آيات الأحكام نزولاً(٣).

---

(١)محاسن التأويل (٤١١/٢) .

(٢)تيسير الكريم الرّحمن (١٤٧) .

(٣)انظر : محاسن التأويل (٤١١/٢) ، وتفسير المنار (١٠٨/٤) ، وتفسير المراغي (٦٧/٤). وآيات البقرة هي قوله ــ تعالى ــ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ =

قال الشَّيخ ابن سعدي ــ رحمه الله ــ : «فنهاهم عن أكل "الربِّا" أضعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتادَهُ أهل الجاهلية، ومَن لا يبالي بالأوامر الشَّرعية مِن أنه إذا حَلَّ الدَّين على الــمُعْسِر، ولم يُحصِّل منه شيءٌ، قالوا له : إمّا أن تقضي ما عليك من الدّين، وإما أن نزيد في المدّة، ويزيد ما في ذمتك، فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ، ويلتزم ذلك ؛ اغتناماً لراحته الحاضرة، فيزداد بذلك ما في ذمَّته أضعافاً مضاعفة، مِن غير نفع وانتفاع.

ففي قوله : ﴿ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ تنبيهٌ على شدّة شناعته بكثرته ، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأنَّ تحريم "الرِّبا" حكمته أنَّ الله منع منه؛ لِــمَا فيه مِن الظُّلم .

=

بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ .

وذلك أنَّ الله أوجب إنظار الـمُعْسِر، وبقاء ما في ذمّته من غير زيادة، فإلزامه بما فوق ذلك ظلمٌ متضاعفٌ، فيتعيّن على المؤمن المُتّقِي تركه ، وعدم قربانه؛ لأنَّ تركه من موجبات التقوى. والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾»(١). و«لَـمَّا نهاهم عن أمْر صَعْبٍ عليهم فِراقُهُ وهو الرِّبا، أمر بتقوى الله ؛ إذ هي الحاملة على مخالفة ما تعوَّدَهُ المرءُ مما نهى الشَّرع عنه»(٢). «والجَمْعُ في هذه الآيات بين النّهي عن أكل الرِّبا والدَّعوة إلى تقوى الله، وإلى اتقاء النار التي أعدت للكافرين(٣)، ليس عَبَثاً، ولا مصادفة، إنما هو لتقرير هذه الحقيقة، وتعميقها في تصوّرات المسلمين، وكذلك رجاء الفلاح بترك الرِّبا ، وبتقوى الله . فالفَلاح هو الثمرة الطبيعية للتقوى ، ولتحقيق منهج الله في حياة الناس»(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن (١٤٧). وانظر : نظم الدرر (٥/٦٤ـ٦٥)، وتفسير المنار (٤/١٠٨) .

(٢) البحر المحيط (٣/٣٤٠).

(٣) المقصود بها قوله الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ ﴾

(٤) في ظلال القرآن (١/٤٧٤) . وانظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (٢/٢٦٠).
لطيفة : يُفيد اقتران الرَّجاء بالتخويف في الآية الكريمة أنَّ العبد ينبغي أن يكون بين الرَّجاء والخوف ، فهما جناحاه اللذان يطير بهما إلى حضائر القدس . انظر : روح المعاني (٢/٢٧٠) .

قال الفخر الرَّازي ــ رحمه الله ــ : «ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ . اعلم أنَّ اتقاء الله في هذا النهي واجبٌ ، وأنَّ الفلاح يتوقّف عليه ، فلو أَكَل ولم يتق زال الفلاح، وهذا تنصيصٌ على أنَّ الربِّا من الكبائر لا من الصَّغائر»(١).

ثالثاً : وأمَّا بخصوص الآية الأخرى من آل عمران : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ، ففيها حضٌّ للمؤمنين على ما يوصلهم إلى الفَلاح، من حيث توجيههم إلى الصِّبر، والمصابرة، والمرابطة، والتقوى؛ فكلّها دواع لحصول الفلاح، وأسبابٌ رئيسةٌ له .

وهذه الآية كسابقتها فـ"لَعَلَّ" فيها دائرةٌ بين التعليل والترجِّي(٢).

قال الألوسي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ، أي : لكي تظفروا وتفوزوا بنيل المُنيَة ، ودَرْك البُغْيَة، والوصول إلى النّجاح في الطِّلْبَة، وذلك حقيقة الفلاح»(٣).

---

(١)مفاتيح الغيب (٣٦٣/٩) . وانظر : البحر المحيط (٣٤١/٣) .

(٢)انظر: "لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٦٨). والجامع لأحكام القرآن (٣٢٧/٤) .

(٣)روح المعاني (٣٨٥/٢).

وانظر : جامع البيان (٥٠٩/٧) تحقيق: شاكر .

وقال أبو جعفر النَّحاس ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، أي : لتكونوا على رجاءٍ من الفلاح ، وأصل الفلاح البقاء والخلود»(١). فـ"لعلَّ" ترجٍّ في حقِّ البشر(٢).

والحديث عن هذه الآية الكريمة ــ على وجه الخصوص ــ حديثٌ ذو شجون؛ ذاك أنها خاتمةٌ فريدةٌ لجملةِ مضامين السُّورة الكريمة ، إذ هي خلاصةٌ لتسعةٍ وتسعين ومائة آية عَطِرَة ، تناولت جوانبَ عديدة ومتنوعة من جوانب حياة أهل الإسلام . أنها «وصَايةٌ جامعةٌ للمؤمنين ، تجدّد عزيمتهم ، وتبعث الهِمَمَ فيهم إلى دوام الاستعداد»(٣). تَجِيءُ هذه الآية «الخاتمة تلخِّص التوجيهات الإلهية لأهل الإسلام، وتـُمَثِّل خصائصها المطلوبة، وتكاليفها المحددة، والتي بها يكون الفلاح : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . وهو ختام يناسب محور السُّورة الأصيل، وموضوعاتها الرئيسية، ويتسق معها كلَّ الاتساق . ثُمَّ يَجِيءُ القول الأخير ، في نداء الله للذين آمنوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . إنه النداء العُلْوي للذين آمنوا .

---

(١) معاني القرآن (٥٣١/١) .

(٢) انظر : المحرر الوجيز (٥٦٠/١) . ومعاني القرآن وإعرابه (٥٠٢/١)، ونظم الدُّرر (١٦٨/٥) ، والتحرير والتنوير (٢٠٩/٤)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣٨٣/٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٠٨/٤) .

نداؤهم بالصِّفة التي تربطهم بمصدر النداء، والتي تلقي عليهم هذه الأعباء، والتي تؤهِّلُهم للنداء ، وتؤهِّلُهم للأعباء، وتكرمهم في الأرض كما تكرمهم في السَّماء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ . النداء لهم، للصَّبر، والمصابرة، والمرابطة، والتقوى . وسياق السُّورة حافل بذكر الصَّبر ، وبذكر التقوى ، يُذْكَرَان مفردين، ويُذْكَرَان مجتمعين . وسياق السُّورة حافل كذلك بالدَّعوة إلى الاحتمال والمجاهدة، ومن ثم تُخْتَمُ السُّورةُ بالدَّعوة إلى الصَّبر، والمصابرة ، وإلى المرابطة ، والتقوى ، فيكون هذا أنسب ختام»(١).

قال الألوسي ــ رحمه الله ــ : «ثُمَّ لَــمَّا بيَّـنَ ــ سبحانه ــ في تضاعيف هذه السُّورة الكريمة ما بيَّـنَ من الحِكَم والأحكام ، وشرح أحوال المؤمنين والكافرين ، وما قاساه المؤمنون الكرام من أولئك اللئام من الآلام ، ختم السُّورة بما يَضُوعُ منه مِسْكُ التمسُّك بما مضى، ويـُضيعُ بامتثال ما فيه مكايد الأعداءِ ، ولو ضَاقَ لها الفَضَا، فقال ــ عز من قائل ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ ﴾ ، أي : احبسوا نفوسَكم عن الجزع مما ينالها، والظَّاهر أنَّ المراد الأمر بما يَعُمُّ أقسام الصَّبر الثلاثة المتفاوتة في الدَّرجة الواردة في الخبر، وهو الصَّبر على المصيبة ، والصَّبر على الطَّاعة ، والصَّبر عن المعصية . ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ ، أي : اصبروا على شدائد الحرب مع أعداء الله ــ تعالى ــ صبراً أكثر مِن صبرهم، وذَكَرَهُ بعد الأمر بالصَّبر العام؛ لأنه أشدّ،

---

(١)في ظلال القرآن (١/٥٤٤، ٥٥١) بتصرف .

فيكون أفضل، فالعطف كعطف جبريل على الملائكة، ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة:٢٣٨] ، على ﴿ ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٣٨] ، وهذا وإن آل إلى الأمر بالجهاد إلا أنه أبلغ منه . ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ ، أي : أقيموا في الثـّـُغور، رابطين خيولكم فيها ، حابسين لها ، مترصِّدين للغزو ، مستعدِّين له ، بالغين في ذلك المبلغ الأوفى أكثر من أعدائكم، والمرابطة أيضاً نوع من الصَّبر، فالعطف هنا كالعطف السَّابق ... . وهذه الآيةُ على ما سَمِعْتَ مشتملةٌ على ما يرشد المؤمن إلى ما فيه مصلحة الدِّين والدُّنيا ، ويرقى به إلى الذِّروة العُليا»(١).

ويذهب الفخر الرّازي ــ رحمه الله ــ إلى جانبٍ آخر من جوانب ربط هذه الآية الكريمة ، واتساقها مع عموم سورة آل عمران بكلام له وجاهته ، وذلك من حيث أنَّ أحوال الإنسان قسمان : الأول : ما يتعلِّق به وحده، والثاني : ما يتعلَّق به من حيث المشاركة مع أهل المنزل والمدينة . وقد أَمَرَ سبحانه ــ نظراً إلى الأول ــ بالصَّبر ، ويندرج فيه الصَّبر على مشقة النظر، والاستدلال في معرفة التوحيد، والنبوة ، والمعاد، والصَّبر على أداء الواجبات، والمندوبات، والاحتراز عن المنهيات ، والصَّبر على شدائد الدُّنيا ، وآفاتها ، ومخاوفها . وأَمَرَ ــ نظراً إلى الثاني ــ بالمصَّابرة ، ويدخل فيها تحمَّل الأخلاق الرَّديـّـَة من الأقارب والأجانب ، وترك الانتقام منهم ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد مع أعداء الدِّين

(١)روح المعاني (٢/٣٨٤ ــ٣٨٥).

باللسان والسِّنان، ثم إنه لــمَّا كان تكليف الإنسان بما ذُكِرَ لا بدَّ له مِن إصلاح القُوَى النفسانية الباعثة على أضداد ذلك ، أمره ــ سبحانه ــ بالمرابطة أعمّ مِن أن تكون مرابطة ثغر أو نفس، ثم لــمَّا كانت ملاحظة الحقّ ــ جلَّ وعلا ــ لا بدّ منها في جميع الأعمال والأقوال حتى يكون معتداً بها، أمر ــ سبحانه ــ بالتقوى، ثم لــمَّا تَمَّتْ وظائف العبودية ، ختم الكلام بوظيفة الرُّبوبية ، وهو رجاء الفلاح منه(١).

ويرى الألوسي ــ رحمه الله ــ في التقرير الآنف «تمحُّلٌ ظاهرٌ، وتعسُّفٌ لا ينكره إلا مكابر» ، وعنده أنّ الأولى من ذلك أن يقال : «إنه ــ تعالى ــ أمر بالصَّبر العام أولاً؛ لأنه كما في الخبر بمنزلة الرَّأس من الجسد ، وهو مفتاح الفَرَج. وقال بعضهم : لكلِّ شيء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصَّبر، وادَّعَى غيرُ واحد أنَّ جميع المراتب العَلِيَّة ، والــمَرَاقِي السَّنِيَّة الدِّينية والدُّنيوية لا تُنَالُ إلا بالصَّبر، ثم إنه ــ تعالى ــ أَمَرَ ثانياً بنوع خاص مِن الصَّبر ، وهي المجاهدة التي يحصل بها النفع العام ، والعزّ التام ، وقد جاء عن رسول الله ــ ﷺ ــ : «إذا تركتم الجهاد سَلَّطَ اللهُ ــ تعالى ــ عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى تَرْجِعُوا إلى دينكم»(٢).

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب (٩/٤٧٣ــ٤٧٤) ، وروح المعاني (٢/٣٨٥).

(٢) هذا جزء من حديث ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ الذي أخرجه أبو داود في سننه (٣/٢٧٤) ح(٣٤٦٢) ، والبزار في مسنده (١٢/٢٠٥) ح(٥٨٨٧)، والبيهقي =

ثم ترقَّى إلى نوع آخر من ذلك، هو أعلَى وأغلَى،وهو المرابطة التي هي الإقامة في ثَغْر ؛ لدفع سوءٍ مترقَّبٍ ممن وراءه . ثم أمر ــ سبحانه ــ آخر الأمر بالتقوى العامة ؛ إذ لولاها لأوشك أن يخالطَ تلك الأشياء شيءٌ من الرِّياءِ، والعُجْبِ،ورؤية غير الله ــ سبحانه ــ ، فيفسدها، وبهذا تَمَّ الــمَعْجُونُ الذي يـُبـْرئُ العِلَّة ، ورَوَقَ الشَّرَاب الذي يـَرْوِي الغُلَّة»(١).

قال الباحث: مما مضى يظهر جُهْد العلماء الكرام -رحمهم الله-، وحسن تقصيهم لجوانب التناسب هنا، ما أوسعتهم البصيرة بحال ، مع أنَّ الكلام في المناسبات كما يُقال : وَرْدَةٌ لا تَحْتَمِلُ الفَرْكَ، وهي استنباطات خاضعة للأخذ والترك . غير أنَّ تلك المقالات الآنفة بعضها أولى بالتَّـرَبُّع على جِـيـدِ البـَيـَان ، وأوفر حَظًّا بإعتلاء هَام الفَصَاحَة مِن بعض.

ويأتي ختم الآية بالدَّعوة إلى تحقيق التقوى في مكانه مُرَتَّباً عليها حصول الفلاح ، «ولقد أكثر الله فى كتابه من ذكر التقوى ، ويراد بها

=

في السنن الكبرى (٥/٥١٦) ح(١٠٧٠٣)، وفي شعب الإيمان (١٣/٣٠٥) ح(١٠٣٧٣) . وقال عنه الشيخ الألباني ــ رحمه الله ــ : «صحيحٌ لمجموع طُرقِه» . سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٤٢) ح(١١) .

(١)روح المعاني (٢/٣٨٥). قال الباحث : كلامُ الفخرالرّازي ــ رحمه الله ــ وجيهٌ لا تعسّف فيه بحال ، ووصْفُهُ بالتمحّل والتعسّف ليس بسديد، والفخر إمامٌ في المناسبات القرآنية، ومطالعةُ تفسيره تـُنـْبـِي بالخبر الأكيد !.

الوقاية من سخط الله وغضبه، ولا يكون هذا إلا بعد معرفته ، ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه، ولا يعرف هذا إلا من فَهم كتاب الله، وعرف سنة نبيه، وسيرة السَّلَف الصَّالح من الأمة الإسلامية»(١).

قال البِقَاعِي ــ رحمه الله ــ : «ثم أمر بـِملاك ذلك كلِّه ، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، أي : في جميع ذلك بأن تكونوا مراقبين له، مستحضرين لجميع ما يمكنكم أن تعلَمُوهُ مِن عظمته بنعمته ونقمته . ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ، أي : ليكون حالكم حال من يـُرْجَى فلاحُهُ وظفره بما يريد ، مِن النصر على الأعداء ، والفوز بعيش الشُّهداء»(٢) .

نَعَم إنِّ الفلاحَ بِمَوَاقِعِهِ مُنصَبٌّ حصوله على «مَن فعل كلَّ ما تقدم، فصبر، وصابر، ورابط؛ لحماية الحقِّ وأهله، ونشر دعوته، واتَّقَى ربَّه فى سائر شئونه، فقد أفلح وفاز بالسَّعادة عند ربـِّه . وهذا الفوز والفلاح بالبُغْيةِ قد يكون فى شئون الدُّنيا ، كما جاء حكاية عن فرعون : ﴿ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه] ، وقد يكون فى شئون الآخرة ، كقوله ــ تعالى ــ حكاية عن أهل الكهف : ﴿ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف] ، وقد يكون فيهما معاً، وأكثر ما جاء فى القرآن من هذا ، كالذى نحن فيه، فإنَّ مصابرة الأعداء ، والمرابطة ، والتقوى

---

(١)تفسير المراغي (١٧٢/٤) .

(٢)نظم الدُّرر (١٦٨/٥) .

كلّها من وسائل الظَّفر على الأعداء فى الدُّنيا ، كما أنها من أسباب السَّعادة فى الآخرة ، بعد توافر حسن النية، وقصد إقامة الحق والعدل»(١).

رابعاً : وأمّا بخصوص آية المائدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾، ففيها أيضاً حضٌّ المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفَلاح ، من حيث أمرهم بالتقوى، وابتغاء الوسيلة إلى الله ــ تعالى ــ ، والجهاد في سبيله ، وأنَّ هذه الثلاثة المطلوبات كلّها دواع للفلاح ، وأسبابٌ محصِّلَةٌ له .

قال أبو حيّان ــ رحمه الله ــ : «وذِكْرُ رجاء الفلاح على تقدير حصول ما أمر به قبل من التقوى،وابتغاء الوسيلة،والجهاد في سبيله»(٢). و"لعلَّ" فيها للتعليل(٣)، أو للترجِّي(٤).

---

(١)تفسير المراغي (١٧٢/٤) . وانظر : تفسير المنار (٢٦٠/٤ــ٢٦١)، وتيسير الكريم الرَّحمن (١٦٢) ، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣٨٢/٢ــ٣٨٣) .

(٢)البحر المحيط (٢٤٢/٤).

(٣)انظر: "لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٥٣). وبحر العلوم (٣٨٧/١)، ولباب التأويل (٤٠/٢)، وروح المعاني (٣١٤/٣) .

(٤)انظر: البحر المحيط (٢٤٢/٤) ، وتفسير المنار (٣٠٥/٦، ٣٠٦)، وتفسير المراغي (١١٠/٦) .

قال الطبري ــ رحمه الله ــ: «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يقول: كيما تنجحوا، فتدركوا البقاء الدَّائم ، والخلود في جناته»(١).

وقال البِقَاعي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، أي : لتكون حالكم حال من يُرْجَى نيلُهُ لكلِّ ما يطلبه»(٢).

وهذه الآية الكريمة من حيثُ تَلَمُّس سبب ختامِهَا بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، يحسن النّظر إليها مُصْطَفَّةً مع الآيات الكريمات قبلها ، فبهذا يظهر وجه الآية الكريمة ، ويزداد جمالاً وجلالاً، إنّها «وعْظٌ من الله ــ تعالى ــ بعَقِبِ ذِكْر العقوبات النازلة بالمحاربين، وهذا من أبلغ الوعظ ؛ لأنه يـَرِدُ على النفوس وهي خائفةٌ وَجِلَةٌ، وعادة البشر إذا رأى وسَمِع أمـــرَ مـُمْتَحَن ببشيع المكاره أن يرقَّ ويخشع، فجاء الوعظ في هذه الحال»(٣).

قال أبو حيّان ــ رحمه الله ــ : «مناسبة هذه الآية لـِمَا قبلها : أنه ــ تعالى ــ لَـمَّا ذَكَرَ جزاءَ مَن حاربَ اللهَ ورسولَه ، وسعى في الأرض فساداً من العقوبات الأربع، والعذاب العظيم الـــمُعَدّ لهم في الآخرة، أمر المؤمنين بتقوى الله، وابتغاء القُرُبات إليه، فإنَّ ذلك هو الـــمُنجِي من المحاربة والعقاب الـــمُعَدّ للمحاربين . ولـــمَّا كانت

---

(١)جامع البيان (٢٩٢/١٠) تحقيق: شاكر .
(٢)نظم الدُّرر (١٣٢/٦) .
(٣)المحرر الوجيز (١٨٧/٢) .

الآية نزلت في العُرَنيين والكَلبيين، أو في أهل الكتاب اليهود، أو في المشركين، على الخلاف في سبب النُّزول[١]، وكلُّ هؤلاء سعى في الأرض فساداً، نصَّ على الجهاد، وإن كان مندرجاً تحت ابتغاء الوسيلة ؛ لأنَّ به صلاح الأرض، وبه قوام الدّين، وحفظ الشَّريعة، فهو مغايرٌ لأمر المحاربة ؛ إذ الجهادُ محاربةٌ مأذونٌ فيها، وبالجهاد يدفع المحاربون . وأيضاً ففيه تنبيهٌ على أنه يجب أن تكون القوة والبأس الذي للمحارب مقصوراً على الجهاد في سبيل الله – تعالى –، وأن لا يضعَ تلك النجدة التي وهبها الله له للمحاربة في معصية الله –تعالى –»[٢].

ويذهب الشَّيخ محمد رشيد رضا ــ رحمه الله ــ مذهباً آخر في وجه المناسبة هاهنا ، مِن أنَّ ذلك إنما «يُبْنَى على أسلوب القرآن الذي امتاز به على سائر الكلام ، مِن حيث كونه مثاني ؛ للهداية ، والموعظة ، والعبرة، لا تَبْلى جِدَّتُهُ، ولا تُمَلُّ قراءتُهُ، والرُّكنُ الأول لهذا الأسلوب أن يكون الكلام في كلِّ موضوع مختصراً مفيداً، تتخلَّلُهُ أسماءُ الله وصفاته، والتذكير بوحدانيته ، ووجوب تقواه، والإخلاص له، والتوجّه إليه وحده، وبالدَّار الآخرة والجزاء فيها على الأعمال، فبناءً على هذا الأسلوب قَفَّى اللهُ –تعالى– على قصة ابني آدم وما ناسبها، من بيان حدود الذين يبغون على

---

(١) انظر : أسباب النزول للواحدي (١/١٩٤ــ١٩٥)، وزاد المسير (١/٥٤٠) .
(٢) البحر المحيط (٤/٢٤٢) . وانظر : مفاتيح الغيب (١١/٣٤٨، ٣٥٠) .

الناس، ويفسدون في الأرض بالأمر بالتقوى، ومنها : اتقاء الحسد ، والبغي ، والفساد، الذي هو سبب الخزي والعذاب في الدُّنيا والآخرة، وبابتغاء الوسيلة إليه ــ تعالى ــ ، والجهاد في سبيله ؛ رجاءَ الفلاح والفوز بالسَّعادة، وبوعيد الكفَّار الذين لا يتقون الله،ولا يتوسَّلون إليه بما يرضيه، فقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾»(١).

ويَرَى الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ أنَّ هذه الآية الكريمة إنما هي «اعتراضٌ بين آياتِ وعيدِ المحاربين وأحكام جزائهم ، وبين ما بعده مِن قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ... الآية ﴾ [المائدة:٣٦] . خاطب المؤمنين بالترغيب بعد أن حَذَّرهم من المفاسد، على عادة القرآن في تخلُّل الأغراض بالموعظة والترغيب والترهيب ، وهي طريقة من الخطابة؛ لاصطياد النفوس، فعقَّبَ حكم المحاربين من أهل الكفر بأمر المؤمنين بالتقوى، وطلب ما يوصلهم إلى مرضاة الله ، وقابل قتالاً مذموماً بقتال يُحْمَدُ فاعلُهُ عاجلاً وآجلاً»(٢).

ويُلاحظُ على تلك المناسبات المذكورات ــ على طول في بعضها ــ ، أنَّ كلَّ مَن عالج مهمّة الرَّبط بين هذه الآية الكريمة وما قبلها استرعى ناظِرَه جانبٌ معيّن ، فنحَا بالرّبط مَنْحَاه ، على أنَّ تلك

---

(١)تفسير المنار (٣٠٥/٦، ٣٠٦) .

(٢)التحرير والتنوير (١٨٧/٦) بتصرّف .

الرّوابط قد أفصحت إلى حدٍّ بعيدٍ عن سرِّ تذييل الآية بالفلاح عموماً ، وجَعْل ختامها : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ خصوصاً .

وحقّاً فالختم بهذه الجملة من الآية الكريمة في موضعه اللائق به،«﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، أي : اتقوا ما يجب تركه ، وابتغوا ما يجب فعله من أسباب مرضاة الله وقُربِـهِ ، واحتملوا الجهد والمشقة في سبيله ؛ رجاء الفوز والفلاح ، والسَّعادة في المعاش والمعاد»(١). وقيل: «لتكون حالُكُم حال مَن يـُرْجَى نيلُهُ لكلِّ ما يطلبه، وهذا شاملٌ لكلِّ أمر بمعروف ، ونهي عن منكر في أعلى درجاته وأدناها»(٢).

خامساً: وأمّا بخصوص الآية الأخرى من المائدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾، ففيها أيضاً حضٌّ المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفَلاح ، من حيث أمرهم باجتناب أمور كانت من عادات الجاهلية وشهواتها : الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، وأنَّ اجتناب هذه الأربعة المناهي جميعها دواع للفلاح ، وأسبابٌ محصِّلَةٌ له .

و"لعلَّ" هنا دائرةٌ بين التعليل والترجّي(٣).

---

(١) تفسير المنار (٣٠٦/٦) .

(٢) نظم الدُّرر (١٣٢/٦) .

(٣) انظر: "لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٦٨) . وروح المعاني (١٦/٤) .

قال الطبري ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يقول: لكي تنجَحُوا ، فتدركوا الفلاحَ عند ربكم بترككم ذلك»(١).

وقال الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ رجاءٌ لهم أن يُفْلِحُوا عند اجتناب هذه المنهيات إذا لم يكونوا قد استمروا على غيرها من المنهيات»(٢).

ولَعَلَّ مــمَّا يُسْهِم في إدراك جانب التناسب في هذه الآية معرفة كيف «كانت الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام من معالم الحياة الجاهلية،ومِن التقاليد المتغلغلة في المجتمع الجاهلي، وكانت كلّها حزمة واحدة ذات ارتباط عميق في مزاولتها، وفي كونها مِن سماتِ ذلك المجتمع وتقاليده . فلقد كانوا يشربون الخمر في إسراف، ويجعلونها من المفاخر التي يتسابقون في مجالسها، ويتَكَاثرون ويُديرُون عليها فخرهم في الشِّعر ، ومدحهم كذلك! . وكان يصاحب مجالس الشَّراب نحر الذَّبائح، واتِّخاذ الشّواء منها للشَّاربين وللسُّقاة، ولأحلاس هذه المجالس ومَن يلوذون بها ، ويلتفون حولها! . وكانت هذه الذَّبائح تُنحَر على الأنصاب ، وهي أصنام لهم كانوا يذبحون

---

(١)جامع البيان (٥٦٤/١٠) تحقيق: شاكر .
وانظر : مفاتيح الغيب (٤٢٤/١٢)، ونظم الدرر (٢٩٢/٦)، ومحاسن التأويل (٧٥/٢) .

(٢)التحرير والتنوير (٢٥/٧) . وانظر : البحر المحيط (٤٥٧/٤)، وتفسير المنار (٥٠/٧)، وتفسير المراغي (٢٣/٧).

عليها ذبائحهم ، وينضَحُونَهَا بدمِهَا ، كما كانت تذبح عليها الذَّبائح التي تقدم للآلهة .

وفي ذبائح مجالس الخمر وغيرها من المناسبات الاجتماعية التي تُشْبهها كان يجري الميسر عن طريق الأزلام. وهي قِدَاحٌ كانوا يستقسمون بها الذَّبيحة، فيأخذ كلٌّ منهم نصيبه منها بحسب قِدْحِه، فالذي قِدْحُه "الـــمُعَلَّى" يأخذ النصيب الأوفر، وهكذا حتى يكون مَن لا نصيب لِقِدْحِهِ ، وقد يكون هو صاحب الذَّبيحة ، فيخسرها كلّها! .

وهكذا يبدو تشابك العادات والتقاليد الاجتماعية،ويبدو جريانها كذلك وفْق حال الجاهلية، وتصوراتها الاعتقادية . لذلك لم يبدأ في علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها، من هذه الرَّذائل والانحرافات، إنما بدأ من العقيدة ، بدأ مِن شهادة أن لا إله إلا الله ، وطالت فترة إنشاءِ لا إله إلا الله هذه في الزَّمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاماً، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية!، تعريفُ الناس بإلههم الحق ، وتعبيدهم له ، وتطويعهم لسلطانه، حتى إذا خلصت نفوسهم لله، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خِيـــَرَة إلا ما يختاره الله، عندئذ بدأت التكاليف»(١).

وقد بدأت الآية الكريمة بخطاب أهل الإيمان ؛ «لاستجاشة قلوب المؤمنين مِن جهة، ولتذكيرهم بمقتضى هذا الإيمان من الالتزام والطَّاعة من جهة أخرى . يلي هذا النِّداء الموحي تقريرٌ حاسمٌ على

(١)في ظلال القرآن (٢/٩٧٣ــ٩٧٤) بتصرّف .

سبيل القصر والحصر : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ . فهي دَنَـسَةٌ لا ينطبق عليها وصف "الطيبات" التي أحلها الله . وهي من عمل الشَّيطان، والشَّيطان عدوُ الإنسان القديم ، ويكفي أن يعلم المؤمنُ أن شيئاً ما مِن عمل الشَّيطان؛ لينفر منه حِسّه، وتشمئز منه نفسه، ويَجْفُلُ منه كيانه، ويبعد عنه مِن خوف، ويَتَّقِيه!. وفي هذه اللحظة يصدر النَّهيُ مصحوباً كذلك بالإطماع في الفلاح، وهي لفتةٌ أخرى من لفتات الإيحاء النَّفسي العميق : ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾»[1].

وللتعبير بالاجتناب في الآية الكريمة غرضه السَّامي، وتوجيهه السَّديد، وهو بهذا اللفظ يأتي متَّسِقاً مع البيئة المحيطة التي مضى ذكر طرفٍ منها ، مما يوجب النّفرة من تلك المُحَرَّمَات ، فكأنه يقول : لقد كنتم تخالطون تلك القبائح كلّها مخالطة عظيمة ، وأمّا الآن يا معشر المؤمنين فاجعلوها في جنبٍ وأنتم في جنبٍ آخر، فهذا هو الأليق برجاستها، والأليق بإيمانكم، وهو طريق فلاحِكُم . «والفاء في قوله: ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ للإفصاح، والضَّمير فيه[2] يعود على الرِّجس الذي

---

(١)في ظلال القرآن (٢/٩٧٥) بتصرّف . وانظر : البحر المحيط (٤/٣٥٦ــ٣٥٧) .

(٢)الضَّمير هنا يحتمل أن يعود على الرِّجس،أو جميع ما مرَّ،أو التعاطي المُقَدَّر، أو الشّيطان.

انظر : روح المعاني (٤/١٦).

هو خبر عن تلك الأمور الأربعة، وهي: الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام ، أي : إذا كان تعاطى هذه الأشياء الأربعة رجساً وقذراً ينأى عنه العقلاء ، فاجتنبوه ؛ لعلكم بسبب هذا الاجتناب والترك لذلك الرجس تنالون الفلاح والظَّفر في دنياكم وآخرتكم . وعَبـَّـر بقوله : ﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾ ؛ للمبالغة في الأمر بترك هذه الرَّذائل، فكأنه ــ سبحانه ــ يقول : لا آمركم فقط بترك الرَّذائل، بل أمركم أيضاً بأن تكونوا أنتم في جانب وهذه المنكرات في جانب آخر. فالأمرُ هنا منصبٌ على الترك وعلى كلِّ ما يـُـؤدِّى إلى اقتراف هذه المنكرات كمخالطة المرتكبين لها، وغَشَيان مجالسها»( ). ١

قال محمد رشيد رضا ــ رحمه الله ــ : «﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ، أي : فإذا كان الأمر كذلك ، فاجتنبوا هذا الرِّجس كلّه، أو فاجتنبوا ما ذُكِر كلّه، أي : ابعدوا عنه، وكونوا في جانب غير الجانب الذي هو فيه ، رجاء أن تُفْلِحُوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم، وتحليتها، بذكر ربكم، ومراعاة سلامة أبدانكم والتوادّ والتآخي فيما بينكم، وتَعَاطي ما ذُكِرَ يَصُدّ عن ذلك ، ويحول دونه»( ). ٢

سادساً : وأمّا بخصوص الآية الأخيرة من المائدة : ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِى ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٤/٢٧٧) بتصرف .

(٢) تفسير المنار (٧/٥٠) . وانظر : تفسير المراغي (٧/٢٣)، وتيسير الكريم الرَّحمن (٢٤٣) .

تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ »، ففيها أيضاً توجيه المؤمنين إلى طريقهم إلى الفَلاح ، من حيثُ أَمرهِم بتحقيق التقوى ــ في جانبٍ معيّن بَاحَتْ به الايةُ الكريمة ــ، والتقوى هي داعية الفلاح ، وسببه الرئيس .

و"لعلَّ" هنا للترَجِّي([1]) ، أو للتعليل([2]).

قال أبو السُّعود ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ راجين أن تنالوا الفلاح، والفوز بالثّواب العظيم، والنّعيم المقيم»([3]).

قال الطبري ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ يقول : اتقوا الله؛ لتفلحوا، أي : كي تنجحوا في طلبكم ما عنده»([4]).

وهذه الآية الكريمة آتيةٌ في موقعها الذي لا يمكن أن تأخذه آيةٌ أُخرى بحال أبداً ، ذاك أنَّ الحقَّ ــ سبحانه تعالى ــ «بعد أن بيـّـن أنَّ الجزاء منوطٌ بالأعمال ، أرادَ أن يبيـّـن ما يتعلق به الجزاء من صفات الأعمال والعاملين لها ، وأرشد إلى أنَّ هناك حقيقتين مختلفتين يترتب على كلٍّ منهما ما يليق بها من الجزاء ، فقال : ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِى

---

(١) انظر: "لَعَلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٤٧) . وروح المعاني (١٦/٤) .

(٢) انظر: جامع البيان (٩٧/١١) تحقيق: شاكر .

(٣) إرشاد العقل السَّليم (٨٤/٣).

وانظر : نظم الدرر (٣١٢/٦)، وروح المعاني (٣٧/٤)، وتفسير المنار (١٠٤/٧).

(٤) جامع البيان (٩٧/١١) تحقيق: شاكر .

ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾، أي: قل أيها الرَّسول مخاطباً أمتك : لا يستوى الرَّديء والجيد من الأشياء ، والأعمال، والأموال، فلا يتساوى الضَّارُ والنافع، ولا الفاسدُ والصَّالح، ولا الحرامُ والحلال، ولا الظَّالم والعادل، فلكلٍّ منها حكمٌ يليق به عند الله ، الذي يَضَعُ كلَّ شيء في موضعه بحسب علمه»(١). وإذاً فهذه الآية الكريمة[٢] فيها «حكمٌ عامٌّ في نفي المساواة عند الله ــ سبحانه وتعالى ــ بين الرَّديء من الأشخاص، والأعمال ، والأموال، وجيِّدها، قُصِدَ به الترغيب في صالح العمل،وحلال المال.﴿ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ ﴾،فإنَّ العبرة بالجودة والرَّداءة ، دون القلّة والكثرة، فإنّ المحمود القليل خيرٌ من المذموم الكثير . والخطابُ عامٌّ لكلِّ معتبر»(٢). لقد جاءت هذه الآية بالقاعدة العامة،والميزان القيّم، ليزن به المسلمون ويحكموا، ميزان يَرْجَحُ فيه الطيِّب ويَشيلُ الخبيث، وذاك أنّ العبرة ينبغي أن تكون بصفة الشّيءِ لا بعدده، وإنما تكون العزّة بالكثرة بعد التساوي في الصّفات . والآيةُ بحقٍّ ميزانٌ وقاعدةٌ جليلةٌ في التشريع، وبرهان للقياس الصَّحيح، وأصلٌ للأدب والتهذيب(٣).

---

(١)تفسير المراغي (٣٨/٧) . وانظر : تفسير المنار (١٠٣/٧) .

(٢)محاسن التأويل (٢٥٨/٤) . وانظر : روح المعاني (٣٦/٤) .

(٣)انظر : تفسير المنار (١٠٤/٧، ١٠٥) ، في ظلال القرآن (٩٨٣/٢، ٩٨٤)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣٠٦/٤) .

ولقائل أن يقول ما سرّ الإتيان بقوله : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ هنا ؟.

وفائدة الإتيان بتلك الجملة تظهر من أنه «لـمَّا كان من المعلوم أنَّ الخبيث لا يُساوي الطيب ، وأنَّ البَوْنَ بينهما بعيدٌ، عَلِمَ السَّامعُ من هذا أنَّ المقصود استنزال فَهْمِه إلى تمييز الخبيث من الطيب في كلِّ ما يلتبس فيه أحدُهما بالآخر، وهذا فتحٌ لبصائر الغافلين ؛ كيلا يَقَعُوا في مَهْوَاةِ الالتباس ؛ ليعلموا أنَّ ثَمَّةَ خبيثاً قد التفَّ في لباس الحسن ، فتَمَوَّه على النَّاظرين، ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾، فكأنَّ الخبيث المقصود في الآية شيءٌ تلبَّس بالكثرة ، فَرَاقَ في أعين الناظرين ؛ لكثرته، ففتح أعينهم للتأمل فيه ؛ ليعلموا خُبْثَهُ ، ولا تعجبُهُم كثرته»(١).

ويزيد البِقَاعي ــ رحمه الله ــ أوجُهاً من التدبُّرَات في هذا الجانب، حيث قال: «فإنَّ ما يتوهَّمُونه في الكثرة من الفضل لا يوازي النقصان من جهة الخبيث. ولَـمَّا كان الخبيث من الذَّوات والمعاني أكثر في الظَّاهر وأيسر، قال:﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾، والخبيث والطيب منه جسماني، ومنه روحاني، وأخبثهما الرُّوحاني ، وأخبثه الشِّرك ، وأطيب الطيب الرُّوحاني معرفة الله وطاعته ، وما يكون للجسم من طيب أو خبث ظاهرٌ لكلِّ أحد، فما خالطه نجاسة صار

(١) التحرير والتنوير (٦٣/٧) .

مستقذراً لأرباب الطِّباع السَّليمة، وما خالط الأرواح من الجهل صار مُسْتَقْذَرَاً عند الأرواح الكاملة المقدَّسة ، وما خالطه مِن الأرواح معرفةُ الله فواظب على خدمته أشرق بأنوار المعارف الإلهية ، وابتهج بالقرب مِن الأرواح المقدسة الطَّاهرة، وكما أنَّ الخبيث والطيب لا يستويان في العالم الرُّوحاني ، كذلك لا يستويان في العالم الجسماني، والتفاوت بينهما في العالم الرُّوحاني أشدّ؛ لأنَّ مضرَّة خبث الجسماني قليلة، ومنفعة طِيبِهِ يسيرة ، وأمَّا خبث الرُّوحاني فمضرَّته عظيمةٌ دائمةٌ ، وطيب الرُّوحاني منفعته جليلة دائمة ، وهي القرب من الله ، والانخراط في زُمْرَة السُّعداء»(١).

ويأتي ختام الآية الكريمة مقصوداً به تأكيد ما مرَّ من الترغيب النّصوح في سلوك سبيل الطاعات ، والتحذير الشّفيق من ولُوج دروب المعاصي : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . ووجه مناسبة هذه الجملة بيّنٌ ، ذاك أنه «لـمَّا ذكر ــ تعالى ــ هذه الترغيبات الكثيرة في الطاعة، والتحذيرات من المعصية، أتبعها بوجه آخر يؤكدها، فقال ــ تعالى ــ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، أي : فاتقوا الله بعد هذه البيانات الجَلِيَّة، والتعريفات

---

(١)نظم الدرر (٦/٣١١ــ٣١٢) .
وانظر : مفاتيح الغيب (١٢/٤٤٢) .

القويـّـة، ولا تُقْدِمُوا على مخالفته ؛ لعلكم تصيرون فائزين بالمطالب الدُّنيويـّـة والدِّينيـّـة ، العاجلة والآجلة»(١).

ومما يَسْتَرْعِي النَّظَرَ في هذه الآية الكريمة أنها الوحيدة(٢) من جملة الآيات المختومة بـــ"لَعَلَّ" ومعموليها ، نادَى فيها الربُّ ــ تعالى ــ أولي الألباب خاصَّةً ، وخاطبهم بتمثّل التقوى إن هم أرادوا الفلاح، وقد خلتْ مثيلاتها من ذلك ! .

والذي يظهر أنَّ مغزَى هذا كامنٌ في أنَّ أولى الألباب «هم الـــمُتَقَدِّمُونَ في تمييز الطَّيـّـب من الخبيث، فلا ينبغي لهم إهمال ذلك . وكأن الإشارة بهذه الْأَلْبابِ إلى لُبِّ التجربة الذي يزيد على لُبِّ التكليف بالحِنكَة ، والفِطْنَة المستنبطة ، والنظر البعيد»(٣).

قال البـِقَاعي ــ رحمه الله ــ: «ويزيد المعنى وضوحاً قوله : ﴿ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾، أي: العقول الخالصة من شوائب النفس ، فتؤثروا الطيـّـبَ ــ وإن قَلَّ ــ في الحسِّ ؛ لكثرته في المعنى على الخبيث ــ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/٤٤٢) .

(٢) قد أتى قَرْنُ التقوى مع نداء أولي الألباب في قوله ــ تعالى ــ :﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ ﴾ [الطلاق:١٠] . وأتى : ﴿ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾ [البقرة] . وأتى : ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ ﴾ [البقرة] .

(٣) المحرر الوجيز (٢/٢٤٥)، والبحر المحيط (٤/٣٧٦) .

وإن كَثُرَ ــ في الحس ؛ لنقصه في المعنى . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، أي: لتكونوا على رجاء من أن تفوزوا بجميع المطالب»(١).

وقال الشيخ محمد رشيد رضا ــ رحمه الله ــ : «ولمَّا كان من دأب أهل الغفلة والجهل الغرور بالكثرة مطلقاً، قال ــ تعالى ــ تعقيباً على ما أثبته من تفضيل الطيّب على الخبيث ، وإن كَثُرَ الخبيث : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ، أي : فاتقوا الله يا أصحاب العقول الرَّاجحَة، ولا تغترُّوا بكثرة المال الخبيث ، ولا بكثرة أهل الباطل والفَسَاد من الخبيثين ؛ فإن تقوى الله ــ تعالى ــ هي التي تنظِّمُكُم في سِلْك الطيبين، فيُرْجَى لكم أن تكونوا من المفلحين، أي: فائزين بخير الدُّنيا والآخرة . وإنما خص أولي الألباب بالذكر في عجز الآية بعد مخاطبة كل مكلَّف في صدرها ؛ لأنَّ أهل البصيرة والرّويّة من العقلاء هم الذين يعتَبِرُون بعواقب الأمور التي تدلُّ عليها أوائلها ومقدماتها، بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها، فلا يُصِرُّون على الغُرور بكثرة الخبيث بعد التنبيه والتذكير، وأما الأغرار والغافلون الذين لم يُمَرِّنُوا عقولَهم على الاستقلال في النظر، والاعتبار بالتجارب والحِكَم، فلا يفيدهم وعظُ واعظٍ، ولا تذكير مُذَكِّر، بل لا يعتبرون بما يَرَوْنَ بأعينهم، ويَسْمَعُون بآذانهم من حوادثِ الأغنياءِ ، الذين ذهبت أموالُهم الكثيرةُ المجموعةُ من الحرام، ولا من عواقبِ الأمم والدُّوَل التي اضمَحَلَّت كثرتها العاطلة

(١) نظم الدُّرر (٣١٢/٦) .

من فضيلتي العِلْم والنظام، وكيف ورث هؤلاء وأولئك مَن كانوا أقلّ مالاً ورجالاً ؛ إذ كانوا أفضلَ أخلاقاً وأعمالاً ، والعاقبة للمتقين»(١).

سابعاً: وأمَّا بخصوص آية الأعراف : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾،ففيها توجيه هود ــ عليه السلام ــ لقومه عادٍ بضرورة تذكّر آلاء الله ــ تعالى ــ الواصلة إليهم، ووجوب شكر نِعَمِهِ السَّابغة عليهم، وهذا التذكّر والمطالبة بالشّكر هو داع بليغ للفلاح، وسببٌ رئيسٌ له. و"لعلَّ" هنا دائرةٌ بين التعليل والترجّي(٢).

قال الطَّبري ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يقول: كي تفلحوا فتدركوا الخلود ، والبقاء في النِعَم في الآخرة ، وتنجحوا في طلباتكم عنده»(٣).

---

(١) تفسير المنار (١٠٤/٧ــ١٠٥). وانظر : تيسير الكريم الرّحمن (٣٤٥) ، وتفسير المراغي (٣٩/٧ ٩) ، والتحرير والتنوير (٦٤/٧)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣٠٧/٤) .

(٢) انظر: "لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٧٠) .

(٣) جامع البيان (٥٠٥/١٢) تحقيق: شاكر .
وانظر : بحر العلوم (٥٢٧/١) ، ولباب التأويل (٢١٧/٢)،وإرشاد العقل السّليم (٢٣٩/٣) ، وروح المعاني (٣٩٥/٤) .

قال مكي القيسي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : لتكونوا على رجاءٍ من الفَلاح»(١). وعند أبي حيّان : «﴿اذْكُرُوا﴾، الظَّاهر أنه من الذِّكْر، وهو أن لا يتناسوا نِعَمه، بل تكون على ذِكْر منكم ؛ رجاء أ ن تفلحوا»(٢).

ونبيُّ الله هود ــ عليه السلام ــ وهو يبذل قُصَارى جهده ؛ ــ كيما يزيل معاذير قومه عَادٍ أن أُرْسِلَ إليهم من ربّهم ــ تعالى ــ ينذرهم ، ويدلّهم على طريق التوحيد الــمُنجِي ــ يحشد البراهين على خطئهم في تصورّهم القاصر، وتعليقهم رفض كونه نبياً لهم على ذلك التصوّر المتوارث . «ونلمس من خلال التعبير القرآنى أنَّ قوم هود قد تعجبــّوا من اختصاص هود بالرِّسالة ، كما تَعَجُّبَ قوم نوح من قبلهم من ذلك، فأخذ هُودٌ ــ عليه السلام ــ في إزالة هذا العَجَبَ من نفوسهم، فقال : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ ﴾ ، أى : أَكَذَّبتم وعجبتم من أن جاءكم ذِكْرٌ وموعظةٌ من ربكم على لسان رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه وحسبه، إنَّ ما عجبتم له ليس موقع عَجَبٍ، بل هو عينُ الحكمة ، فقد اقتضت رحمة الله أن يرسل لعباده من بينهم مَن يرشدُهم إلى الطَّريق القويم ــ و﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ ﴾ [الأنعام:١٢٤] ــ . ثم أخذ في تذكيرهم بواقعهم الذي يعيشون

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٢٤٢٢/٤).
وانظر : البحر المحيط (٨٨/٥) .
(٢) البحر المحيط (٨٨/٥) .

فيه؛ لكي يحملهم على شكر الله، فقال: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾، أى: اُذْكُرُوا بتأمُّل واعتبار فضل الله عليكم ونِعَمه ، حيث جعلكم مستخلفين في الأرض من بعد قوم نوح الذين أغرقوا بالطُّوفان؛ لكفرهم وجحودهم . ثم ذَكَّرَهم بنعمة ثانية ، فقال : ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ ﴾، أى : زادكم في المخلوقات بسطةً وسَعَةً في الملك والحضارة، أو زادكم بسطةً في قوة أبدانكم ، وضخامة أجسامكم، ومِن حقِّ هذا الاستخلاف وتلك القوة، أن تـُقَابـَلا بالشُّكر لله رب العالمين»(١).

وقال البِقَاعي ــ رحمه الله ــ : «ولَـمَّا عَظُمَتِ النِّعمةُ، كرَّر عليهم التذكير، فقال : ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ ، أي : نِعَم الذي استجمع صفات العظمة التي أنعم عليكم بها من الاستخلاف والقوة وغيرهما، واذْكُرُوا أنه لا نعمةَ عندكم لغيره أصلاً، فصار مُسْتَحِقّاً لأن تخصُّوه بالعبادة. ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، أي : ليكون حالكم حال مَن يـُرْجَي فلاحُه، وهو ظَفَرُهُ بجميع مراده؛ لأنَّ الذِّكر موجبٌ للشُّكر المُوجِب للزِّيادة»(٢).

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/٣٠٤ــ٣٠٥) بتصرف يسير .
وانظر : تفسير المنار (٨/٤٤٣) ، وتفسير المراغي (٨/١٩٤ــ١٩٥) .
(٢) نظم الدُّرر (٧/٤٣٩) .

وقال الألوسي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، أي: لكي يـُفْضِي بكم ذِكْر النـّعم إلى شكرها الذي من جملته العمل بالأركان والطاعة المؤدي إلى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب ، وهذا لأنَّ الفلاح لا يترتب على مجرد الذِّكْر .

ومِن النَّاس مَن فسَّر ذِكْر الآلاءِ بشُكْرِهَا، وأَمْرُ التـّرَتـّبِ عليه ظاهر»(١).

وإذاً فلعلَّ في سوق تلك النقول عن المفسّرين، ــ وفي بعضها ما ليس في الآخر ــ ما يظهر مدى تناسب : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾مع ما قبله من الآية الكريمة تناسباً تامّاً من كلِّ وجه .

مع ضرورة ملاحظة أنَّ هذا الختام هو الوحيدُ الـمُوَجَّه لغير هذه الأمّة من الأمم السّالفة ، لقوم عادٍ!. في حين أنَّ كل المواطن المتناولة بالدّراسة هنا هي لهذه الأمّةِ الأخيرةِ !.

وفي هذا إلماحةٌ إلى أنَّ طلب الفلاح بتقفّي أسبابه هو ما ينبغي أن يسلكه العقلاء في كلّ زمان ، ومكان ، وملّة .

ثامناً: وأمَّا بخصوص آية الأنفال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾،ففيها توجيه المؤمنين المقاتلين في سبيل الله من هذه الأمة بضرورة الثبات،

---

(١)روح المعاني (٣٩٥/٤) .
وانظر : البحر المحيط (٨٨/٥) .

وذكر الله ــ تعالى ــ حالة ملاقاةِ خصومهم، وأنَّ هذا داع عظيم من داوعي الفلاح ، وسببٌ رئيس لتحصيله .

و"لعلَّ" هنا كسابقتها دائرةٌ بين التعليل والترجّي[1].

قال الطَّبري ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يقول : كيما تنجحوا ، فتظفروا بِعَدُوِّكُم، ويرزقكم اللهُ النصرَ ، والظَّفر عليهم »[2].

قال البَغَوي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، أي : كونوا على رجاء الفَلاح»[3].

وهذه الآيةُ الكريمةُ وصيةٌ من الله ، وتعريفٌ منه ــ جَلَّ ثناؤُهُ ــ لأهل الإيمان به، السِّيرةَ في حرب أعدائه من أهل الكفر به ، والأفعالَ التي يُرْجَى لهم باستعمالها عند لقائهم النَّصْرَة عليهم، والظَّفَر بهم . «وفي هذه الفقرات القليلة تحتشد معان وإيحاءات، وقواعد وتوجيهات، وصور ومشاهد ، وتشخص مواقف من المعركة كأنها حية واقعة، وتتكشف خواطر ومشاعر ، وضمائر وسرائر ،

---

(١)انظر: "لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٧٢) . وجامع البيان (٥٧٤/١٣) تحقيق : شاكر .

(٢)جامع البيان (٥٧٤/١٣) تحقيق: شاكر .

وانظر : التفسير الوسيط للواحدي (٤٩١/١) .

(٣)معالم التنزيل (٢٩٨/٢).

وانظر : لباب التأويل (٣١٦/٢)، ونظم الدرر (٢٩٣/٨)، وتفسير المنار (٢١/١٠) .

مما يحتاج تصويره إلى أضعاف هذه المساحة من التعبير ، ثم لا يبلغ ذلك شيئاً من هذا التصوير المدهش الفريد!. إنها تبدأ بنداء الذين آمنوا ــ في سلسلة النداءات المتكررة للعصبة المسلمة في السُّورة ــ ، وتوجيههم إلى الثبات عند لقاء الأعداء ، وإلى التزوّد بزاد النصر ، والتأهب بأهبته ، فهذه هي عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله بالذِّكر»(١).

قال ابن عاشور ــ رحمه الله ــ : «لَــمَّا عرفهم الله بنعمه ودلائل عنايته، وكشف لهم عن سرٍّ من أسرار نصره إياهم، وكيف خذل أعداءهم، وصرفهم عن أذاهم، فاستتبَّ لهم النصر مع قلَّتهم ، وكثرة أعدائهم، أقبل في هذه الآية على أن يأمرهم بما يهيء لهم النصر في المواقع كلها، ويستدعي عناية الله بهم، وتأييده إياهم، فجمع لهم في هذه الآية ما به قوام النصر في الحروب»(٢).

إنَّ الثبات في مواجهة العدو أثناء المعارك هو بدء الطريق إلى النّصر، فأثبت الفريقين أغلبهما ، وهو «قوةٌ معنويةٌ طالما كانت السَّبب فى النصر والغَلَبِ بين الأفراد والجيوش، انظر إلى الرَّجُلَين الــجَلْدَين يتصارعان ، فيعيَا كلٌّ منهما ، وتَضْعُفُ قوَّتــُهُ، ويتوقع

---

(١)في ظلال القرآن (٣/١٥٢٧ــ١٥٢٨).

(٢)التحرير والتنوير (١٠/٢٩ــ٣٠) بتصرّف . وقد ذَكَرَ ــ رحمه الله ــ في هذا النّقل عنه مناسبة هذه الآية لِــمَا قبلها بما يحقق إظهار وجه التناسب لختم الآية موطن الدراسة بــ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

كلَّ لحظةٍ أن يقع صريعاً، ولكن قد يخطر له أنَّ خَصْمَه تفسير ربما وقع قبله فيثبت إلى اللحظة الأخيرة، فيكون له الفرحُ والفوزُ على خصمه، وهكذا فى الحروب، فإنَّ من أهم أسباب النصر فيها الثبات ، وعدم اليأس، بل الثبات نافعٌ فى كلِّ أعمال البشر، فهو الوسيلة فى الفوز ، والنجاح فيها»(١).

ولقد أمر الله ـ ﷻ ـ المؤمنين بذِكْره كثيراً في هذا الموطن العظيم من مصابرة العدو ، والتلاحم بالرِّماح وبالسِّيوف ، وهي حالةٌ يقع فيها الذُّهول عن كلِّ شيء ، فأُمِرُوا بذكر الله؛ إذ هو ـ تعالى ـ الذي يُفْزَعُ إليه عند الشَّدائد ، ويُسْتَأنَسُ بذِكْره ، ويُسْتَنصَرُ بدعائه، ومَن كان كثير التعلُّق بالله ذَكَرَهُ في كلِّ موطن حتى في المواضع التي يُذْهَلُ فيها عن كلِّ شيءٍ، ويغيب فيها الحِسُّ ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . وقد حُكِيَ عن بعض الشُّجْعَان أنه في حالة التحام القتال ، تأخذُ الشُّجَاعَ هزَّةٌ ، وتعتريه مثل السُّكر ؛ لهول المُلْتَقَى ، فمن ثَمَّ أُمِرَ المؤمنون بذكر الله ـ تعالى ـ في هذه الحالة العظيمة العصيبة(٢).

قال الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ : «﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ، أي : وأكثروا من ذكر الله في أثناء القتال وتضاعيفه،

---

(١)تفسير المراغي (١٠/٩ـ١٠) . تفسير المنار (١٠/٢٠) .

(٢)انظر : المحرر الوجيز (٢/٥٣٦)، ومفاتيح الغيب (١٥/٤٨٩) ، والبحر المحيط (٥/٣٣١) .

اذكروه في قلوبكم بذكر قدرته، ووعده بنصر رسله والمؤمنين، ونصر كلِّ مَن يتبع سننهم بنصر دينه، وإقامة سننه، وبذكر نهيه لكم عن اليأس ، مهما اشتد البأس، وبأنَّ النصر بيده ، ومِن عنده، ينصر مَن يشاء، وهو القوي العزيز، فمَن ذكر هذا، وتأمَّل فيه ، لا تهوله قوة عدوه ، واستعداده؛ لإيمانه بأنَّ الله ــ تعالى ــ أقوى منه ، واذكروه أيضاً بألسنتكم موافقةً لقلوبكم بمثل التكبير الذي تستصغرون بملاحظة معناه كلَّ ما عداه، والدُّعاء والتضرّع إليه ــ ﷻ ــ مع اليقين بأن لا يعجزه شيء .

هذا وإنَّ الله ــ تعالى ــ قد أمر عباده المؤمنين بالإكثار من ذِكْره وحثَّهم عليه، ووصَف الصَّادقين به في آيات أخرى ، كما وصف المنافقين بقِلَّتِـه ؛ لأنَّ الذِّكْرَ غذاءُ الإيمان ، فلا يكمُلُ إلا بكثرته ، فمَن غَفَلَ عن ذِكْره ــ تعالى ــ استحوذ الشَّيطان على قلبه، وزيَّنَ له الشُّرور والمعاصي»(١).

إذا تقرّر هذا فإنَّ ختم الآية الكريمة بـ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾يأتي في مكانه اللائق به ، من حيثُ التسلسل المنطقي ، فضلاً عن السنّة الربانية ، و«هذا الرَّجاءُ منوطٌ بالأمرين كليهما، أي : إنَّ الثبات ، وذِكْرَ الله ــ تعالى ــ هما السَّببان المعنويان للفلاح ، والفوز في

(١)تفسير المنار (١٠/٢٢،٢٠) . وانظر : تفسير المراغي (١٠/٩ــ١٠) .

القتال في الدُّنيا، ثم في نيل الثواب في الآخرة»[1]. شريطة أن يكون حصول ذينك السّببين عن إخلاص، ورغبة فيما عند الله ــ تعالى ــ.

قال الفخر الرّازي ــ رحمه الله ــ : «ثُمَّ قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وذلك لأنَّ مقاتلة الكافر إن كانت لأجل طاعة الله ــ تعالى ــ ، كان ذلك جارياً مجرى بذل الرُّوح في طلب مرضاة الله ــ تعالى ــ ، وهذا هو أعظم مقامات العبودية ، فإن غلب الخصم فاز بالثواب والغنيمة، وإن صار مغلوباً فــاز بالشَّهادة ، والدَّرجات العاليــة ، أمَّا إن كانت المقاتلة لا لله ، بل لأجل الثناء في الدُّنيا ، وطلب المال لم يكن ذلك وسيلة إلى الفلاح والنجاح»[2].

تاسعاً: وأمَّا بخصوص آية الحجِّ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) ﴾،ففيها حضٌّ المؤمنين على فعل أسبابٍ أربعةٍ ، ودواعٍ رئيسةٍ ؛ لتحصيل الفلاح ، ونَــيْــلِهِ ، متمثّلةٍ في : الرُّكوع، والسُّجود، وعبادة الله ، وفعل الخير. و"لَعَلَّ" كسابقتها دائرةٌ بين التعليل والترجّي[3].

---

(١)تفسير المنار (٢١/١٠) .

(٢)مفاتيح الغيب (٤٨٩/١٥) .

(٣)انظر: "لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٧٤) . والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣٤٦/٩) .

قال الطَّبري ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يقول : لتفلحوا بذلك، فتدركوا به طَلباتكم عند ربكم»[١]. أو لكي تسعدوا ، وتبقوا في الجنة[٢] .

قال أبو إسحاق الزجاج ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ هذا ليس بشك ، ولكن معناه : لترجوا أن تكونوا على فلاح»[٣]. أو إذا فعلتم ذلك كلّه رجوتم الفلاح[٤] .

أو افعلوا ذلك وأنتم راجون الفلاح ، طامعون فيه، غير مستيقنين، ولا تتكِلُوا على أعمالكم[٥] .

وقال أبو القاسم الأنصاري ــ رحمه الله ــ : «"لعل" كلمة للترجية ، فإنّ الإنسان قلما يخلو في أداء الفريضة من تقصير، وليس

---

(١)جامع البيان (٦٨٨/١٨) تحقيق: شاكر .
وانظر : تفسير المراغي (١٤٨/١٧)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣٤٦/٩) .
(٢)انظر:زاد المسير (٢٥١/٣)، ولباب التأويل (٢٦٥/٣)، ومحاسن التأويل(٢٧٦/٧).
(٣)معاني القرآن وإعرابه (٤٣٩/٣). وانظر : المحرر الوجيز (١٣٤/٤)، ونظم الدرر (١٠٠/١٣) .
(٤)انظر : فتح القدير (٥٥٦/٣) .
(٥)انظر : الكشاف (١٧٢/٣)، وروح المعاني (١٩٨/٩) .

هو على يقين مِن أنَّ الذي أتى به هل هو مقبول عند الله ــ تعالى ــ، والعواقب أيضاً مستورة ...»[1].

وهذه الآية الكريمة قد جَمَعَت أنواع التكاليف الشّرعية، وأحاطت بها من كلّ جوانبها . وهي تعتبر من جملة خواتيم سورة الحج ، وفيها الإقبال على خطاب المؤمنين بما يصلح أعمالهم، ويُنـَوِّه بشأنهم . ونصُّ هذه الآية الكريمة «يَجْمَعُ المنهاجُ الذي رسمه الله لهذه الأمة، ويُلَخِّصُ تكاليفها التي أناطها بها، ويُقَرِّرُ مكانها الذي قدَّرَه لها، ويُثبتُ جذورها في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل، متى استقامت على النهج الذي أراده لها الله .

إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالرُّكوع والسُّجود، وهما ركنا الصَّلاة البارزان . ويكني عن الصَّلاة بالرُّكوع والسُّجود ؛ ليمنحها صورةً بارزةً، وحركةً ظاهرةً في التعبير، ترسمها مشهداً شاخصاً ، وهيئة منظورةً ؛ لأنَّ التعبير على هذا النحو أوقع أثراً ، وأقوى استجاشةً للشعور . ويـُثَـنـّـي بالأمر العام بالعبادة ، وهي أشملُ مِن الصَّلاة، فعبادة الله تشمل الفرائض كلّها ، وتزيد عليها كذلك كلَّ عمل ، وكلَّ حركةٍ ، وكلَّ خالجةٍ يتوجّه بها الفردُ إلى الله، فكلُّ نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة ، متى توجَّه القلبُ به إلى الله . حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتةٍ صغيرةٍ تصبحُ عبادات تُكْتَبُ

---

(١)مفاتيح الغيب (٢٣/٢٥٤) .

له بها حسنات، وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته ، فإذا هي عباداتٌ وحسناتٌ، ولم يتحوّلْ في طبيعتها شيءٌ، ولكن تحوَّل القصدُ منها والاتجاه! ، ويختم بفعل الخير عامة ، في التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصَّلاةِ والعبادة»(١).

ويسلك الفخر ــ رحمه الله ــ طريقاً بديعاً في تلمّس سرّ ترتيب تلك المأمورات بتلك الصّورة، فيقول: «والوجه عندي في هذا الترتيب: أن الصَّلاة نوعٌ من أنواع العبادة، والعبادة نوعٌ من أنواع فعل الخير؛ لأنَّ فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود، الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله ، وإلى الإحسان ، الذي هو عبارة عن الشَّفَقَة على خلق الله، ويدخل فيه البرّ ، والمعروف ، والصَّدَقَة على الفقراء، وحسن القول للناس ، فكأنه ــ سبحانه ــ قال : كلَّفْتُكُم بالصَّلاة ، بل كلَّفْتُكُم بما هو أعمّ منها ، وهو العبادة ، بل كلَّفْتُكُم بما هو أعمُّ مِن العبادة، وهو فعل الخيرات»(٢).

ويأتي ختام الآية بالتذييل المعهود: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وهو تذييل قُصِدَ به التحريض للأُمّة على امتثال ما حَضَّتْ عليه تعاليم الإسلام الخالدة . والشَّارع الحكيم وهو يأمرها قبلُ بتلك الأوامر إنه

---

(١)في ظلال القرآن (٢٤٤٥/٤) . وانظر: الكشاف (١٧٢/٣)، وروح المعاني (١٩٧/٩ــ١٩٨) .

(٢)مفاتيح الغيب (٢٥٤/٢٣) .

يفعل ذلك «رجاء أن تُفْلِح، فهذه هي أسباب الفلاح : العبادة تصلها بالله ، فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة ، وطريق واصل ، وفعل الخير يـُؤَدِّي إلى استقامة الحياة الجماعية على قاعدة من الإيمان ، وأصالة الاتجاه . فإذا استعدتِ الأمةُ المسلمة بهذه العُدَّةِ من الصِّلَةِ بالله ، واستقامةِ الحياة، فاستقام ضميرها ، واستقامت حياتها، نهضت عندئذٍ بالتبعة الشَّاقة»(١).

قال الشيخ ابن سعدي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، أي : تفوزون بالمطلوب المرغوب ، وتنجون من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق ، والسَّعي في نفع عبيده ، فمن وُفِّقَ لذلك، فله القِدْح الـمُعَلَّى، مِن السَّعادة ، والنجاح ، والفلاح»(٢).

عاشراً: وأمَّا بخصوص آية النّور : ﴿... وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣١ ﴾، ففيها الأمر لمعشر المؤمنين ــ رجالاً ونساءً ــ بسلوك طريق التوبة؛ حيث إنها سبب الفلاح الرَّكين، وداعيه الحثيث .

و"لَعَلَّ" كسابقتها دائرةٌ بين التعليل والترجّي(٣).

---

(١)في ظلال القرآن (٢٤٤٥/٤) بتصرّف يسير .

(٢)تيسر الكريم الرَّحمن (٥٤٦) .

(٣)انظر: "لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٧٤) . روح المعاني (٣٤١/٩) .

قال الطَّبري ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يقول : لتفلحوا وتدركوا طلباتكم لديه، إذا أنتم أطعتموه فيما أمركم ونهاكم»[٢]. أو لكي تفوزوا بسعادة الدَّارين[٣].

وقال البِقَاعي ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : لتكونوا على رجاءٍ من الفوز بالمطلوب»[٤].

وهذه الآية الكريمة من بدئها إلى نهايتها[٥] جامعةٌ لأنواع من الأدب السَّامي، وقد جاءت في سياقها المناسب لها ؛ إذ سبقتها آيةٌ فيها أمرٌ للمؤمنين بغضِّ أبصارهم ، وحفظ فروجهم، ومَن ثَمَّ أتت هذه الآية فيها ذات الأمر بالأدب الآنف ، لكن هذه المرّة في جانب المؤمنات ، مع بيان الحـــدود التي أذن فيها الشَّارع لعلاقة المرأة مع

---

(١)جامع البيان (١٦٥/١٩) تحقيق: شاكر .

(٢)محاسن التأويل (٣٨٠/٧) . وانظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (١١٨/١٠).

(٣)نظم الدُّرر (٢٦٤/١٣) . وانظر : البحر المحيط (٣٧/٨) .

(٤)ونصُّها : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

الرِّجال الأجانب عنها ، والأقارب إليها في لبسها وزينتها وسلوكها، بما يضمنُ لها تحقيق مقاصد الشّريعة ؛ كونها مكلّفة بالأمر والنهي من لَدُن ربّها العظيم . «ولـــمَّا أمر ـــ تعالى ـــ بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة ، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك ، أمر الله ـــ تعالى ـــ بالتوبة، فقال : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾؛ لأنَّ المؤمن يدعوه إيمانـــهُ إلى التوبة، ثم علَّق على ذلك الفلاح ، فقال: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرُّجوع مما يكرهه الله ، ظاهراً وباطناً ، إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً ، ودلَّ هذا أنَّ كلَّ مؤمن محتاج إلى التوبة؛ لأنَّ الله خاطب المؤمنين جميعاً، وفيه الحثُّ على الإخلاص بالتوبة في قوله : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، أي : لا لِـــمَقْصدٍ غير وجهه، من سلامة من آفات الدُّنيا، أو رياءً وسُمْعَةً ، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة»(١).

والآية الكريمة تُنَادِي أهل الإيمان كلّهم إلى التوبة ؛ لِـــمَا يقع منهم من التقصير الواقع في أمر الله ونهيه، وهي أمرٌ حثيثٌ أن يراجعوا طاعته فيما أُمِروا به ونُهُوا عنه من جملة الآداب المذكورة فيما مضى في هذه الآية الكريمة ، ولربما فيما مضى من هذه السُّورة ذاتها .

---

(١)تيسير الكريم الرَّحمن (٥٦٦) .

والحقُّ أنَّ أوامر الله ــ تعالى ــ ونواهيه في كلِّ باب لا يقدر العبد الضَّعيف على مراعاتها ، وإن ضبط نفسه واجتهد ، فلا ينفك عن تقصير يقع منه ، وخلَّل يتأتّى في عمله ؛ إذ هو بشرٌ ، النقص غالب عليه، فلذلك وصَّى الله ــ تعالى ــ هاهنا المؤمنين بالتوبة والاستغفار ، ووَعَدَهُم على ذلك الفلاح ، إذا هم تابوا واستغفروا(١).

قال ابن عاشور ــ رحمه الله ــ : «﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ أعقبت الأوامر والنواهي الموجهة إلى المؤمنين والمؤمنات بأمر جميعهم بالتوبة إلى الله ؛ إيماء إلى أنَّ فيما أُمِرُوا به ونهوا عنه دفاعاً لداع تدعو إليه الـجِبِلَّة البشرية من الاستحسان والشَّهوة ، فيصدر ذلك عن الإنسان عن غفلة ، ثم يتغلغل هو فيه ، فأُمِرُوا بالتوبة ؛ ليحاسبوا أنفسهم على ما يَفْلُتُ منهم من ذلك اللمم المؤدي إلى ما هو أعظم»(٢).

«والقرآن يأخذ الطَّريق إلى هذا كلِّه ؛ لأنَّ منزلَهُ هو الذي خلق، وهو الذي يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير ، وفي النهاية يـَرُدُّ القلوبَ كلَّها إلى الله ، ويفتح لها باب التوبة مما ألـَمَّتْ به قبل نزول هذا القرآن : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾. بذلك يثير الحساسية برقابة الله، وعطفه ورعايته، وعونه للبشر في ضعفهم

---

(١) انظر : لباب التأويل (٢٩٣/٣) .

(٢) التحرير والتنوير (٢١٤/١٨) .

أمام ذلك الميل الفطري العميق، الذي لا يضبطه مثل الشعور بالله، وبتقواه»(١).

حادي عشر: وأمَّا بخصوص آية الجمعة: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾، ففيها التوجيه الرّباني للمُصلِّين للجُمُعَة إن هم أنهوا صلاتهم أن ينتشروا في الأرض، ويبتغوا من فضل الله، ويذكروا الله كثيراً ، وهذه المذكورات ، ــ وخصوصاً الذِّكْر ــ أسبابٌ رئيسة؛ لتحقيق الفلاح، وباعث أساس له . و"لَعَلَّ" هنا للتعليل(٢)، أو للترجِّي(٣).

قال الشَّوكـــاني ــ رحمه الله ــ : «﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ أي : كي تفوزوا بـــخير الدَّارين ، وتظفروا به»(٤).

جاءت هذه الآية الكريمة مع التي قبلها في سياق الحثِّ على الإهتمام بإجابة نداء الصَّلاة من يوم الجمعة ، وترك التشاغل بالدُّنيا عن ذلك، وكان التوجيه الربّاني فيها بضرورة السَّعي الـــمبكّر إلى ذكر الله ــ تعالى ــ ، ورُتِّبَ على ذلك الخير العظيم ، الذي لو علمه المخاطب لهان عليه كلَّ شيءٍ يقف عائقاً بينه وبين تلبية ذلكم النداء

---

(١)في ظلال القرآن (٤/٢٥١٤) بتصرف .

(٢)انظر: "لعلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية (٦١) .

(٣)انظر: نظم الدرر (٢٠/٦٨) .

(٤)فتح القدير (٥/٢٧١) . وانظر : جامع البيان (٢٣/٣٨٥) تحقيق: شاكر، والجامع لأحكام القرآن (١٨/١٠٩)، وروح المعاني (١٤/٢٩٨) .

حينئذٍ . «والآية الأولى في هذا المقطع تأمر المسلمين أن يتركوا البيع، وسائر نشاط المعاش ، بمجرد سماعهم للأذان : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ﴾ [الجمعة:٩] . وتـُرَغِّبهم في هذا الانخلاع من شؤون المعاش، والدُّخول في الذِّكر في هذا الوقت : ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ ﴾ ، مما يوحي بأنَّ الانخلاع من شؤون التجارة والمعاش كان يقتضي هذا الترغيب والتحبيب ، وهو في الوقت ذاته تعليمٌ دائمٌ للنفوس ، فلا بدَّ من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش ، وجواذب الأرض ؛ ليخلو إلى ربه، ويتجرَّد لذِكْره، ويتذوَّق هذا الطعم الخاص للتجرُّد ، والاتصال بالملأ الأعلى، ويملأ قلبه وصدره من ذلك الهواء النقي الخالص العطر ويستروح شَذَاه! . ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ ﴾.

وهذا هو التوازن الذي يتَّسِمُ به المنهج الإسلامي، التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض، من عمل وكَدٍّ ونشاطٍ وكسبٍ ، وبين عُزْلَةِ الرُّوح فترة عن هذا الجو ، وانقطاع القلب، وتجرُّده للذِّكر، وهي ضرورة لحياة القلب ، لا يصلح بدونها للاتصال والتلَقِّي، والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى . وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش، والشُّعور بالله فيه هو الذي يحوِّل نشاط المعاش إلى

عبادة ، ولكنه ــ مع هذا ــ لا بدَّ من فترة للذِّكر الخالص، والانقطاع الكامل، والتجرّد الممحض ، كما توحي هاتان الآيتان»[١].

وفي قوله : ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ احتراسٌ من الانصباب في أشغال الدّنيا انصباباً يُنسي ذكر الله ، أو يُشغل عن الصّلوات؛ فإنّ الفلاح في الإقبال على مرضاة الله ــ تعالى ــ[٢] .

«ولــمَّا كان مراد الإنسان من جميع تصرفاته الفوز بمراداته ــ تعالى ــ ، قال الحقّ معلِّلاً لهذا الأمر : ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ، أي: لتكونوا عند النّاظر لكم والمطّلع عليكم مِن أمثالكم ممن يجهل العواقب على رجاءٍ من أن تظفروا بجميع مطلوباتكم ؛ فإنَّ الأمور كلّها بيد مَن تكثرون ذِكره، وهو عالمٌ بمن يستحقُّ الفلاح ، فيُسْعِفُهُ به ، وبمن عمل رياءً ونحوه ، فيُخيِّبه، فإذا امتثلتم أمره كان جديراً بتنويلكم ما تريدون، وإن نسيتموه كنتم جديرين بأن يَكِلَكُم إلى أنفسكم ، فتهلكوا»[٣].

والفلاح كلّ الفلاح إنما هو في تقديم ما يتعلّق بأمور الدّين على ما يتعلّق بأمور الدّنيا ، وفي تفضيل ما يبقى على ما يفنى ، هذا هو التوازن السَّامي الذي تدلّ عليه الآية الكريمة .

---

(١)في ظلال القرآن (٦/٣٥٦٩ــ ٣٥٧٠) .

(٢)انظر : التحرير والتنوير (٢٨/٢٢٧) .

(٣)نظم الدرر (٢٠/٦٨) .

الخاتمة :

بعد هذه الدّراسة الوجيزة لهذا الموضوع ذي الصّلة بالتفسير وبعلوم القرآن خرج البحث بالنتائج الآتية :

١. "لعلَّ" أحد حروف المعاني الفاعلة والمؤثرة في فَهم معاني كلام الله ــ ﷻ ــ ، والأصل الوضعي فيها أنها حرفٌ للتوقّع والترجّي بشقيه: الاطماع أو الإشفاق . وفيها لغاتٌ كثيرةٌ مسموعةٌ عن العرب.

٢. تأتي "لَعَلَّ" لمعاني كثيرة ، أظهرها : التعليل ، وقد أثبته جماعة ، وبالغ بعضهم فجعل كلّ "لَعَلَّ" وردت إنما هي للتعليل، ومنعه جماعة، ومنها الاستفهام . وثَـمَّةَ معان ثانوية: كالأمر، والنهي، والتبعيد، والتعرض، والإيجاب، والتمني،وغيرها.

٣. "لَعَلَّ" إذا وردت في كلام الله ــ تعالى ــ فقد اختلف العلماء في المراد بها حينئذٍ على أقوال عديدة، لكلٍّ وجهة نظره الــمُقَدَّرَة ، وتعليلاته لــِمَا ذهب إليه في ذلك ، والذي رجّحه البحث أنها تبقى على أصل وضعها اللغوي من كونها للترجّي والإطماع ، لأدلة وتعليلات ذكرت في البحث .

٤. التناسب يكاد يكون أمراً في طبيعة هذا الكون،وهو إذاً مِن سُنن الله ــ ﷻ ــ،ومِن لوزام تسخير الكون أرضاً وسماءً لهذا الإنسان، ومِن ثَمَّ فالسّعي في تلمّس جانب التناسب في كلام الله ــ تعالى ــ ينسجم والحكمة في خلق الله ، وتدبيره للكون وللحياة .

٥. التناسب يُعرف بأنه الرّابط بين شيئين بأي وجه من وجوه الارتباط، وله أنواعه في كتاب الله ــ تعالى ــ ، وله مظاهره، وله فوائده مما قد ذكره البحث .

٦. من أنواع المناسبات التناسب اللغوي ، وله صوره في كتاب الله ــ تعالى ــ منها : المشاكلة، وتناسب الجنس، والتناسب الصّوتي، والبياني، وغيرها ، وقد أتت هذه الأنواع التعبيرية في القرآن الكريم ، لإيصال المعاني المطلوبة إلى المخاطبين ، فجمع بين الوفاء بحقِّ اللَّفظ ، وفي نفس الوقت الالتزام بأداء حقِّ المعنى كلٍّ على حد سواء.

٧. أتت "لَعَلَّ" في كتاب الله ــ تعالى ــ نحواً من (١٢٧ موضعاً) ، وهي تأتي في أول الآية ، وفي وسطها ، والأعمّ الأغلب أن تأتي في ختامها ، وذلك في نحو (١١٧ موضعاً) .

٨. وردت آيتان كريمتان مذيلتان بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وقد قام البحث بدراستها .

٩. وردت ثلاث آيات كريمات مذيلات بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وقد قام البحث بدراستها .

١٠. وردت إحدى عشرة آية مذيلةً بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وقد قام البحث بدراستها .

١١. في كلّ تلك الآيات الست عشرة المحدَّدَة لهذه الدراسة التطبيقية كان أبـــرز مظهر للتـــناسب فيها ما أُودِعَ بين طياتهما من دواعي التفـــكُّـــر، والفلاح ، وأسبـــابـــه .

على أنه يحسن في ختام هذا البحث الإشارة إلى بعض التوصيات ، ومنها:

١. علم المناسبات علم له حضوره المؤثّر في تفسير كلام الله ــ تعالى ــ ، ــ وإن نازع فيه المنازعون ــ، وهناك موضعات متعددة ومتنوعة في كتاب الله بالإمكان تلمّس جوانب التناسب فيها بشكل أو بآخر ، وفق الآلية العلمية المتبعة، وضمن ضوابط وشروط محددة ، يُنصفَ بها كلامُ الله ــ عزَّ شأنُه ــ من عبث العابثين ، المُتَمَحِّلِينَ لإيجاد المناسبات فيه أحياناً وجوهاً لا يوافقون عليها بحال .

٢. هذا البحث سَعَى لإيجاد جوانب التناسب في دائرةٍ محددة ووجيزة، وبالإمكان للبَحَثَة الكرام استكمال الجوانب الأخرى التي لم يمكنه التطرق إليها ؛ نظراً لمحدودية الزَّمان والدَّواعي ، من تلك الآيات الكريمات المَحْصِيَّات .

فهرس المصادر والمراجع

• الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السُّيوطي ، تحقيق وإعداد مركز البحوث والدراسات بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة ــ الرياض، ط١، ١٤١٧هـ.

• اختيارات ابن القيم وترجيحاته في التفسير ، دراسة موازنة من أول القرآن الكريم إلى آخر سورة الإسراء ، إعداد/ محمد بن عبد الله بن جابر القحطاني ، بحثٌ مُقَدَّمٌ لنيل درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه من قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، عام ١٤٢٦ــ ١٤٢٧هـ . تحت إشراف الأستاذ الدكتور/ إبراهيم بن سعيد الدوسري .

• أدوات الإعراب، لظاهر شوكت البياتي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م .

• الأدوات النحوية في كتب التفسير ، للدكتور: محمد أحمد الصغير ، دار الفكر، دمشق، المطبعة العلمية، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

• الأزهية في علم الحروف، لعلي بن محمد النّحوي الهروي، تحقيق: عبد المعين الملّوحي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨١م .

• أسباب نزول القرآن، لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق : عصام الحميدان ، دار الإصلاح ، الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ /١٩٩٢م .

• أنوار الرّبيع في أنواع البديع ، لعلي صدر الدين بن معصوم المدني، تحقيق: شاكر هادي ذكر، النّجف، العراق، ١٣٨٨هـ/١٩٥٣م.

• الإيضاح في شرح مقامات الحريري ، لأبي المظفر الـمُطَرِّزي ، إيران، ١٢٧٢هـ .

• الإيضاح في علوم البلاغة ، لجلال الدّين القزويني ، تحقيق وعناية د : عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

• البرهان في علوم القرآن ، لمحمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث ، القاهرة .

• بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادى ، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، عام النشر: جـ ١، ٢، ٣: ١٤١٦هـ/١٩٩٦م . جـ ٤، ٥: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م . جـ ٦: ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

• تاج العروس من جواهر القاموس، للمرتضى الزّبيدي الحسيني، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية .

• التحرير والتنوير (تحرير المعنى السّديد ، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ، تونس، ١٩٨٤هـ .

• تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني)، لمحمود الألوسي، عناية: علي عطيّة، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٤١٥هـ .

• تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير)،لعبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، عناية:أحمد شمس الدين،دار الكتب العلمية،بيروت، ط١٤١٤،١هـ.

• تفسير ابن سعدي (تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنان)، للشيخ : عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة ، ط١٤٢٠،١هـ .

• تفسير ابن عطية (المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)،لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السّلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ .

• تفسير أبي حيان (البحر المحيط في التفسير) ، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق:صدقي جميل، دار الفكر ، بيروت، ط ١٤٢٠هـ .

• تفسير أبي السُّعود (إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، لأبي السُّعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

• تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، للحسين بن مسعود البغوي،تحقيق:عبد الرزاق المهدي،دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط١٤٢٠،١هـ.

• تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، لعلي بن محمد الشِّيحي (المعروف بالخازن)،تصحيح:محمد علي شاهين،دار الكتب العلمية، ط١٤١٥،١هـ.

• تفسير الزَّمخشري (الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل)، لجار الله أبي القاسم محمود الزّمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ .

• تفسير السّمرقندي (بحر العلوم) ، لأبي اللَّيث السّمرقندي، تحقيق: علي معوض وآخرون، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ .

• تفسير سورة الرّعد ، للدكتور: محمد مصطفى علي مصطفى ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، الرياض، ط١، ١٤٠٨/١٩٨٨م.

• تفسير الشنقيطي (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، لمحمد الأمين ابن محمد الشَّنقيطي،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

• تفسير الشُّوكاني (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية) ، لمحمد ابن علي الشوكاني،دار ابن كثير،دمشق،ودار الكلم الطيب،بيروت،ط١٤١٤،١هـ .

• تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١٤٢٠،١هـ/٢٠٠٠م .

• تفسير الفاتحة والبقرة، للشيخ : محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية ، ط١ ، ١٤٢٣هـ .

• تفسير القاسمي (محاسن التأويل)، لمحمد جمال الدِّين القاسمي، تحقيق : محمد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميه ، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ .

• تفسير القرآن العظيم ، لابن أبي حاتم الرّازي ، تحقيق: أسعد محمد الطيب،مكتبة نزار مصطفى الباز، السّعودية، ط٣، ١٤١٩هـ .

• تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، لأبي عبد الله محمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية ، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

• تفسير الماوردي (النكت والعيون)، لأبي الحسن علي البغدادي، (الشهير بالماوردي) ، تحقيق : السيد بن عبد المقصود ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

• تفسير المراغي ، لأحمد مصطفى المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر، ط١، ١٣٦٥ـ١٩٤٦م .

• تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) ، لمحمد رشيد بن علي رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م .

• تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، لأبي البركات عبد الله النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه

وقدم له: محيي الدين ديب مستو ، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

• التلخيص في علوم البلاغة ، لجلال الدّين القزويني، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي ، ط٢، القاهرة، ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م .

• "التناسب اللَّفظي في القرآن" ، مقال منشور في موقع "إسلام ويب" على الشبكة العنكبوتية .

• تهذيب اللُّغة ،لأبي منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

• توضيح المقاصد والمسالك في شرح ألفية ابن مالك ، للمرادي، تحقيق الدكتور: عبد الرحمن سليمان، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ .

• الـجَنَى الدَّاني في حروف المعاني، لأبي محمد حسن بن قاسم المرادي المصري ، تحقيق د : فخر الدّين قَبَاوة، والأستاذ: محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

• حاشية الشِّهاب على تفسيرِ البيضاوِي (عناية القاضى وكفاية الرَّاضى على تفسيرِ البيضاوي)، لشهاب الدين أحمد الخفاجي، دار صادر ، بيروت .

• حاشية القنوي مع ابن التمجيد على تفسير البيضاوي ، طبع منذ ١٠٠عام في مصر في ثمان مجلدات ، ويوجد في المكتبة المركزية بجامعة أم درمان الإسلامية تحت رقم تسجيل (٥٤٢٩) .

• الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين ، إعداد: هادي ابن عطية الهلالي، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

• حروف المعاني والصفات، لأبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي، تحقيق : علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط١، ١٩٨٤م .

• حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل، لشهاب الدين محمود الحلبي، تحقيق الدكتور: أكرم عثمان يوسف، بغداد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

• دراسات لأُسلوب القرآن الكريم ، للشيخ : محمد بن عبد الخالق عظيمة، دار الحديث ، القاهرة .

• دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، للأستاذ الدكتور : زاهر ابن عواض الألمعي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ .

• ديوان أبي العتاهية، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠هـ .

• رَصْف المباني في شرح حروف المعاني، لأحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق الدكتور : أحمد الخرَّاط ، مجمع اللغة العربية ، دمشق، ١٩٧٥م .

• سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، للشيخ : محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، (لمكتبة المعارف) ، عام النشر: جـ ١ـ٤ :

١٤١٥هـ/١٩٩٥م . جـ ٦ : ١٤١٦هـ/١٩٩٦م . جـ ٧ : ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .

• سنن أبي داود، لأبي داواد سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت .

• السُّنن الكُبرى،لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي،تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنات، ط٣، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

• السنة، لأبي عبد الله محمد المَرْوَزي، تحقيق: سالم أحمد السَّلَفي، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ .

• شرح التسهيل ، لمحمد بن عبد الله الطائي الأندلسي (المعروف بابن مالك) ، تحقيق الدكتور : عبد الرحمن السيد ، والدكتور : محمد بدوي المختون ، هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

• الشَّريعة، لأبي بكر الآجري البغدادي، تحقيق الدكتور: عبد الله بن عمر بن سليمان الدُّميجي، دار الوطن ، الرياض ، السعودية، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

• شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل،لابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، طبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

• شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي ، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السَّلَفية ببومباي، الهند ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السَّلَفية ببومباي ، بالهند ، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م .

• الصَّاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأحمد ابن فارس الرّزاي ، الناشر: محمد علي بيضون، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

• الصِّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل الجوهري ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

• صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لأبي حاتم محمد بن حبان البُستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

• صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، ط٣، ١٤٠٧هـ .

• صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ طبع .

• علم البديع، لعبد العزيز بن عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان .

• عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، للسَّمين الحلبي ، تحقيق: محمد باسل عيون السّود، دار الكتب العليمة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

• في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشُّروق، بيروت، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ .

• قطر النّدى وبلّ الصّدى، لابن هشام الأنصاري، عناية: محمد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، صيدا ــ بيروت ، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

• الكتاب ، لسيبويه ، بولاق ١٣١٨هـ، وفهرس شواهد للنفاخ ، بيروت، وفهرس الشيخ: محمد عبد الخالق عظيمة، مصر، مطبعة السعادة، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

• كتاب التعريفات، للشريف علي الجرجاني ، حققه وضبطه وصححه جماعة مِن العلماء بإشراف الناشر،دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

• الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللُّغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكَفَوي الحنفي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت .

• "لَعَلَّ" في القرآن الكريم دراسة دلالية تركيبية ، للدكتور: يوسف بن محمود فجّال ، طبع مركز بحوث كلية الآداب ، جامعة الملك سعود، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .

• "لَعَلَّ" وتوسُّعات العرب في استعمالاتها ، للدكتورة: فاطمة بنت عبد الرحمن حسين ، من مطبوعات معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى، مركز بحوث اللغة العربية وآدابها ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

• مباحث في التفسير الموضوعي ، للأستاذ الدكتور: مصطفى مسلم، دار القلم ، دمشق ، ط٣، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

• المجيد في إعراب القرآن المجيد ، للصفاقسي، تحقيق: موسى محمد زنين ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس، ط١، ١٩٩٢م .

• مختار الصِّحاح، لمحمد بن أبي بكر الرّازي ، عناية : يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية، بيروت، ط٣، ١٤١٨هـ .

• المستدرك على الصَّحيحين، لأبي عبد الله الحاكم ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

• مسند البزَّار (المنشور باسم البحر الزخَّار)، لأبي بكر أحمد العتكي (المعروف بالبزار) تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩) . وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧). وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨) . مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، ط١ ، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م) .

• مشكاة المصابيح، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله التبريزي ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م .

• معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصَّابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، ط١، ١٤٠٩هـ .

• معاني القرآن وإعرابه،لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجّاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب ، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

• معجم حروف المعاني في القرآن الكريم (مفهوم شامل مع تحديد دلالة الأدوات) ، لمحمد بن حسن الشّريف، مؤسسة الرسالة، ط١٠، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

• المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان الطبراني، تحقيق: حمدي السَّلَفي، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة، ط٢، ويشمل القطعة التي نشرها لاحقاً المحقق من المجلد ١٣دار الصميعي ، الرياض ، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

• معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، للدكتور: أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠٠٠م .

• معجم مقاييس اللّغة، لأحمد بن فارس القزويني،تحقيق:عبد السَّلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

• مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

• مفاتيح الغيب، لمحمد بن عمر (الفخر الرَّازي) ، دار إحيـــاء التراث العربي، بيروت، ط٣.

• المفردات في غريب القرآن، للرَّاغب الأصفهاني ، تحقيق: صفوان عدنان الداودي،دار القلم، الدار الشامية ، دمشق ، بيروت ، ط١، ١٤١٢ هـــ

• المقتضب ، للمبرد ، تحقيق الشيخ : محمد عبد الخالق عظيمة ، مصر، ١٣٨٥هـــ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

• نزهة الأعين النّواظر في علم الوجوه والنظائر ، لأبي الفرج بن الجوزي ، دراسة وتحقيق : محمد عبد الكريم الرّاضي، مؤسسة الرسالة ، ط٣، ١٤٠٧هـــ .

• نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور، لأبي بكر إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

• نهاية الأرب في فنون الأدب ، لأحمد بن عبد الوهاب النويري، دار الكتب المصرية، القاهرة .

• الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي ، جامعة الشَّارقة، بإشراف أ. د: الشَّاهد البوشيخي ، مجموعة بحوث الكتاب والسنة ، كلية الشّريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الشّارقة، ط١، ١٤٢٩هـــ/ ٢٠٠٨م .
التفسير الوسيط لطنطاوي(٥/٤٣٥ــ٤٣٦).

• همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين السُّيوطي، تحقيق وشرح الدكتور: عبد العال سالم مَكرَم، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

• الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لعلي بن أحمد الواحدي ، تحقيق وتعليق:عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور : أحمد محمد صيرة، الدكتور : أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور : عبد الرحمن عويس ، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور : عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ.

* * * * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
ــ ملخص البحث ، ومقدمة البحث :	٣١٣
ــ المبحث الأول : مبحث تمهيدي ، فيه ثلاثة مطالب :	٣٢٤
المطلب الأول : في "لَعَلَّ"، ومعانيها .	
المطلب الثاني : في معنى التناسب ، وأبرز أنواعه، وفائدته .	
المطلب الثالث : ذِكْر مواضع "لَعَلَّ" في القرآن الكريم .	
ــ المبحث الثاني : تناسب الآيات المختومة بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وفيه مطلبان :	٣٦٣
المطلب الأول : تناسب الآيات المختومة بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .	
المطلب الثاني : تناسب الآيات المختومة بـــ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .	
ــ المبحث الثالث:تناسب الآيات المختومة بـــ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.	٤٠٤
ــ الخاتمة : وفيها بيان أهم النتائج والتوصيات .	٤٦٢
ــ فهرس المصادر والمراجع.	٤٦٥
ــ فهرس الموضوعات .	٤٦٨